السنة السادسة (ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ - ابريل سنة ١٩٤٠ م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

ص ١ ح ع ١٩٣٤ م

تصدرها "جماعة دار العلوم"
كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير	المدير
محمد على مصطفى	محمد نجيب حتاتة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

إِنَّ بَاحِثًا مُدَقِّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ أَيْنَ تَمُوتُ
اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَأَيْنَ تَحْيَا، لَوَجَدَهَا تَمُوتُ فِي كُلِّ مَكَانٍ
وَتَحْيَا فِي دَارِ الْعُلُومِ"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أميرتنا الجديدة

أسبغ الله نعمته على البيت العلوى الكريم ، وعلى الشعب المصرى عامة حين أشرقت فى سماء القصر ، وتألقت فى أفق القطر صاحبة السمو الملكى الأميرة « فوزية » كلأها الله وأقر بها الأعين .

لقد كان حادثا سعيدا قابله الشعب المخلص الوفى للعرش بقلوب مفعمة بالفرح والابتهاج ، فكان عيدا قوميا مباركا يتجدد الاحتفال به كلما حان ميعاده .

وإن الصحيفة ليشرفها أن تنوب عن أساتيذ اللغة العربية من أبناء دار العلوم فى جميع المعاهد — فى أن ترفع إلى السدة العلية أخلص التهنئة من قلوب ملؤها الولاء لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول حفظه الله !! وأن تضرع إلى المنعم المتفضل أن يجعل قدوم الأميرة المحبوبة طالع يمن وبشير سعادة شاملة للبلاد وأهلها ، إنه سميع الدعاء !!

موجة نور من ضفاف الأنبياء

وهذه أنشودة بارعة، تغنى بها الشاعر المبدع الأستاذ **محمود حسن اسماعيل** خريج دار العلوم فى الحفلة الساهرة التى أقامتها محطة الإذاعة فى دار الأوبرا الملكية احتفالا بميلاد صاحبة السمو الملكى الأميرة فوزية قال:

مالقيثارك ياشا عرنعسان الأغانى ؟
خمر « آذار » حواليك تغنى فى الدِّنان
والضحى قلب على الشطآن خفّاق الحنان
والربى أنفاسُ عشاقٍ وأحلامُ غوانِى
والهوى والشعرُ من فرطِ الهوى معتنقان
لاترى زهرةَ أيكٍ لم يزرها عاشقان
ويبثان لها النجوىَ وتسبيحَ الأمانى ..
لاترى شطّ غديرٍ لم يعدْه طائران
وكما موجتُه تحكى رُؤاها يسمُران ..
لاترى سنبلةً فى الحقل خرساءَ اللسان
فخفيفُ البرُّ موسيقا تُغنّى للزمان
ولمن يَسمعُ بالروح، ويُصغى للمعانى ..
كل شىء حولَ أيامك هتَّاف المغانى
فَلِم القيثارُ نعسان ؟ وماذنبُ الأغانى ؟
هى فى الأوتار تدعوك، فَقُم هزَّ المثانى !
إن يكن حانُك قد جَنَّ فَلِمْ تهجرُ حانى؟
وأنا النيلُ أبو الدنيا، ومُحيِي المِهْرَجان !!

٭٭٭

هكذا قال لى النيلُ ! فأشجانى المــلامُ
وتلفتٌ وللناى بكفىَّ حنينٌ وغرام
وإذا عرسٌ على ضفاتِه الخضرِ مُقامَ
رصعته الأنجمُ البيضُ ووشّاه الغمام
هاجت الأيامُ فى الغربِ وأضراها الخصامُ
ولياليه أغاريدٌ وعطرٌ وســلامُ
ورحيقٌ من هوى الدُّنيا وسحرٌ وابتسامُ
ومزاميرُ بكَفِ الطيْرِ تَصْحُو وتنامُ
قَصبُ الخُلْدِ لها يُصغى، فيُشْجيه البُغامُ
وَرنَّ القُبَّر المسحورُ منها والحَمام ..
أىّ عرسٍ ذاك لم يَشْهد مجاليه الأنامُ ؟
وفد الشعبُ له نشوانَ يُعييه الزحامُ
مثل موجِ البحرِ ، دنياه سجودٌ وقيامُ
نحو «عبدين» رَمى الشوقُ سراه والهيامُ ..

***

هكذا قلت لموج النيل فى ظل المساءِ
وله فى الشطِّ ماللزهر من همسِ الغناءِ !
فسجا حيناً . ودوّى صوتُه بين الفضاءِ
قال : عرسُ القصرِ لو تعلمُ عرسٌ فى السماءِ
أترع الحورُ له فى الفجر أقداحَ الضياءِ
وتهادَيْنَ لشطّى ، وتراقصْنَ إزائى
وحثثن الخطوَ للقصرِ ، ببِشرٍ وهناءِ

ثم أقبلن على المهدِ بهالاتِ الدعاءِ
وإذا موجةُ نورٍ من ضفافِ الأنبياءِ
الهدى والطهرُ حوليها وأنغامُ الصفاءِ
بنتُ «فاروقٍ» وبنتُ الشمسِ دُنيا من ضياء!

٭٭٭

إيه يا «فاروق» أيامُك للأيام عيدُ
وغناءٌ فى فم الشرقِ سماوىٌّ جديد
وعلى تاجك للأوطان نصرٌ وسعودُ
عصرُك الميمون فجرٌ فى روابيها سعيدُ
رَقرَقَ النورُ فذابت حول ساقيها القيودُ
وغزاها البعثُ والإصلاحُ فانهار الجمود
كلّ يوم لك فيها مذهبٌ عالٍ سديدُ
من رأى وجهَكَ فى المحراب أغراه السجودُ
قسماتٌ للهدى فيها، وللمجد شهودُ
وجبينٌ فيه للوادى أمانٌ وعهودُ
وبه للغيب آياتٌ سيتلوها الوجودُ!

٭٭٭

قائدَ الجيش سلاماً جيشُك الحتفُ المبيدُ
خلقته جمرةُ الأهوال والبأسُ الشديدُ
ورعاه سيفُ «إبراهيم» والعزمُ الحديدُ
فليَعُدْ فى جَبْهةِ الدّنيا يحامى ويسودُ
وليعدْ «خالدُ» للشرقِ، ويرعاه «الرشيدُ»!

٭٭٭

قائدَ الجيشِ سلاماً جيشك الحتفُ المبيدُ
طرْ إلى الجوزاءِ إنا خلفك اليومَ جنودُ
كلنا فى الهزل هولٌ وبروقٌ ورعودُ
نصرع الاقدارَ عن «مصر» ونفدى ونذودُ
نحن شعبٌ من قديمِ الدهرِ جبارٌ عنيدُ !
ملكُنا فوق السهَا رَفرفُه عالٍ بعيدُ
عاشَ راعيه ، وحيته من النيل الورُودُ
ومن الشعب قلوبٌ والهاتٌ وكبودُ !!

مراقبة الثقافة العامة
وزارة المعارف العمومية

محمود حسن اسماعيل

كلمة عاجلة

كان للمعلم ورسالة المعلم ومقام المعلم « وكادر » المعلم شيء من العناية فى مجلس النواب حين عرض لدراسة ميزانية المعارف ، وإنه ليسرنا أن يدرك حضرات أعضاء المجلس الموقر منزلة المعلم فى أمته ، ويقدروا رسالته قدرها ، ويلقوا على عاتقه إعداد الجيل الناشىء

وقد نال معلم اللغة العربية خاصة كثيرا من اهتمام حضرات الأعضاء ، فنادى بعضهم بوجوب النظر فى ظلامته التى ضج بالشكوى منها فى السنين المتتابعة ، ونرجو أن يكون لما صرح به حضرات الأعضاء أثر عملى فى الوزارة المهيمنة على شئون التعليم .

٭٭٭

أما هذه الظلامة فتتلخص فى أن وزارة المعارف لم تسو فى المعاملة بين طائفتين تزاولان عملا واحدا فكالت لأبناء المعلمين العليا بكيل ، وكالت لأبناء دار العلوم بكيل آخر ، وجرى العمل على ذلك حقبة من الزمن ، حتى تضخم سبب الشكوى ، وتجسمت الفروق ، وعظم شأنها ، فبرمت نفوس أبناء دار العلوم بحالتهم ، وهبوا يطلبون حقهم المهضوم ، ويرجون مساواتهم بغيرهم ، ولقيت شكاتهم فى بعض الأحيان آذانا مصغية ، غير أن أسباب الشكوى مازالت قائمة ، والنفوس مازالت برمة ، ولعل وزارة المعارف تحترم تلك الرغبات التى أبديت فى مجلس النواب الموقر ، فتعمل على إنصاف هؤلاء المعلمين ، وترد إليهم حقهم كاملا .

إن أبناء دار العلوم — وعددهم يبلغ الألف فى وزارة المعارف — قد طالبوا بحقهم فى هوادة ولين ، وهم إن سكتوا الآن على الظلم ، فإنما يدفعهم إلى السكوت شعور وطنى عميق استقر فى نفوسهم منذ أن نشأت ، وهم يقدرون تلك المحنة العالمية التى يجتازها العالم ، وهم على أتم الاستعداد لأن يضحوا بكل شيء فى سبيل بلادهم ومليكهم ؟

الأسلوب القصصى وأثره فى النثر العربى

للدكتور أحمد ضيف

يعتبر الأسلوب القصصى من أعظم أنواع النثر فى الكتابة الأدبية عند جميع الأمم ، ولكن أدباء العرب لم يعنوا بتدوين هذا الأسلوب إلا فى العصر العباسى ، إذ لم يكن للقصص أثر يذكر فى عصور اللغة العربية قبل ذلك ، ولا تحسب قصص الزباء وسطيح ، وحروب العرب وأخبار الجن، وماهو مدون من سيرهم وأحوالهم وأخبارهم، وما كان يجرى فى المجالس والمحافل هناك — من هذا النوع ، لأن هذه قصص تاريخية لا أدبية فنية، وليست مكتوبة بأسلوب أدبى رصين ، ولا بقلم كاتب واحد ، بل رواها الرواة وغيروا وبدلوا فيها ، كما يروى المؤرخ حادثة ثم يرويها مؤرخ آخر بطريقة أخرى، فلا يعد هذا من الأساليب الأدبية ، على أن الأسلوب القصصى ظهر فى الأدب العربى وبلاغته ، منذ ظهر أول كتاب فى لغة العرب، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم ، فقد جاء القرآن بكثير من القصص التى تحسب من نماذج الكتابة البليغة ، وأساليبها الفنية البديعة، المحتوية على كثير من الأحوال التاريخية والاجتماعية: كقصص فرعون وموسى وإبراهيم ويوسف وعيسى ومريم وأهل الكهف وسليمان والنمل وغيرها ، ولكن لم ينسج على منوالها أحد من الكتاب ، لأن الأدباء ونقاد الأدب لم يرشدوا الكتاب إلى هذا النوع من الكتابة الفنية .

القصص والأحاديث :

وقد احتوت كتب الأدب العربى على كثير من القصص ، كأيام العرب وحروبهم وذكر ملوكهم وشعرائهم وعشاقهم ، ولكن كل هذا من باب الأحاديث أو المسامرات، لا من باب الكتابة الأدبية الفنية التى تتميز بأسلوب الكاتب ، وتعرف بصبغته الشخصية ، وشعوره الخاص به فى الكتابة ؛ لأن حوادث التاريخ لا تتغير ، وطبيعة الإنسان واحدة ، فالحب والبغض والطمع والقناعة والإحساس والأساءة والتقوى والضلال ، كلها حالات ثابتة فى النفوس وفى طبيعة الإنسان، لا تختلف فى أصلها؛ ولكن الذى يتغير ويختلف هو إدراك الشخص لها، وفهمها فهما صحيحا أو خطأ ، وتصوير ذلك على حسب ما يرى ويفهم فهذه الشخصية هى التى تظهر فى الكتابة القصصية وتميزها عن غيرها ، وهى التى تقلب التاريخ إلى أسطورة أو إلى بحث نفسى أو اجتماعى ، وقوة الكاتب وبراعته هى التى تلبس الحوادث والحكايات لباسا قد يجعلها خالصة باقية ببقاء الأيام .

هذه الصفات التى ذكرناها شرط من شروط كتابة القصة الفنية الأدبية، وهذا النوع من القصص المبنية على التفكير العميق ، والنظام العقلى الخاص والأسلوب الفنى الكتابى المحتوى على ذكر أشخاص متصفين بأخلاق خاصة وصفات خاصة . يتحدثون ويتناقشون، فتظهر فى أثناء أحاديثهم ومناقشاتهم خفايا النفوس البشرية، وما تنطوى عليه العقول من ميول وأهواء وعقائد — هذه الصفات لم تظهر ظهورا جليا فى النثر العربى إذ ليست هى ذلك النوع من الأحاديث التى نشرت فى كتاب الأغانى وغيره من أخبار الخاصة والعامة، ولا تلك الأخبار التاريخية أو الجغرافية وغيرها .

القصص العربية :

وقد ظهر فى القرنين الثالث والرابع وما بعدهما — أحاديث أو حكايات

تدخل فى باب القصص، من حيث أنها أخبار منمقة مكتوبة كتابة أدبية ولكن كثيرا منها ليس مبنيا على خيال الكاتب نفسه، بل هى سرد أو وصف لشىء رآه، مثل ما يحكى عن أهل بغداد ومجالس الرشيد والبرامكة. وجزء عظيم من هذه القصص منقول عن اللغات الفارسية وغيرها، أو محاكاة لها، أو مؤلف تأليفاً هو أقرب إلى التاريخ منه إلى القصص، وبعضها كتب بلغة ملحونة فاسدة لا تحسب من نماذج الأدب الصحيح، مثل القصص العربية المعروفة التى كتب أكثرها بلهجة عامية مصرية، كقصة عنتر وسيف بن ذى يزن وغيرهما.

أما مثل رسالة الغفران لأبى العلاء والتوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسى وحى بن يقظان — فهى من الكتابة العلمية أو الفنية الخاصة بالنقد الأدبى أو الفلسفى.

وهناك نوع من القصص، هى من القصصى التى أخذ الكتاب فى معالجتها وأخذوا موضوعاتها من التاريخ العام، أو من بعض البلدان التى عاشوا فيها، أو من قصص القرآن، أو من ألف ليلة وليلة، أو من تاريخ العرب خاصة، مثل حكاية أبى القاسم أحمد البغدادى، وحكاية الحداد وما جرى له مع هارون الرشيد، وقصة أنيس الجليس وما جرى لها مع على نور الدين وهى مأخوذة من ألف ليلة وليلة، وحديث علاء الدين والقنديل المسحور، والحكايات المنسوبة إلى أبى الحسن أحمد بن عبد الله بن محمد البكرى، المتوفى فى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى، كغزوة الأحزاب وما جرى للإمام على الفارس الوثاب. وغزوة الإمام على بن أبى طالب مع اللعين الهضام بن الجحاف، وفتوح اليمن المعروفة بقصة القول، وغير ذلك من القصص الكثيرة التى كتبت فى أزمان مختلفة.

قصة عنترة:

ومن أشهر القصص التى كتبت عن أبطال العرب قصة عنترة، وينسبون

روايتها إلى الأصمعى فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، وهو أقرب إلى وصف الحياة البدوية منها إلى غيرها، وهى مكتوبة بأسلوب ملحون.ولكنها احتوت على كثير من أخبار العرب وأشعارهم وأوصاف حروبهم وعاداتهم وأخلاقهم من كرم وشهامة وشجاعة وميل إلى الانتقام، كما احتوت على حبهم للشعر وفنونه وجملة أحوالهم الاجتماعية والتاريخية قبل الإسلام.

وهذا يدل على أن الذوق فى القصص العربية كانت بذرة قد بدأت تنمو فى نفوس الكتاب،ولو أن هذه القصص وأمثالها كتبت باللغة الفصحى،لكانت من أعظم فنون الأدب فى النثر العربى،ولكنها بأسلوبها هذا لاتحسب من اللغة الصحيحة ، بالرغم مما بها من الأشعار والأخبار والأمثال ، ويقولون إن هذه القصة كتبت فى مصر،ويروون فى ذلك « أنه نشأ فى مصر من أفاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل ، وكان يتصل بباب العزيز بالقاهرة فاتفق أن حدثت ريبة فى دار العزيز ، ولهج الناس بها فى المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك ، وأشار على الشيخ يوسف بن إسماعيل المتقدم أن يطرق ماعساه أن يشغلهم عن هذا الحديث ، وكان واسع الرواية فى أخبار العرب، كثير النوادر والأحاديث ، فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فأعجبوا بهاواشتغلوا بها عماسواها،ومن تلطفه فى الحيلة أنه قسمها إلى اثنين وسبعين كتابا،والتزم فى آخر كل كتاب منها،أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذى يشتاق القارىء والسامع إلى الوقوف على تمامه ، فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه، فإذا وقفت عليه انتهى به إلى مثل ما انتهى فى الأول وهكذا . . . إلى نهاية القصة ، وقد أثبت فى هذه الكتب بعض ماورد فى أشعار العرب المذكورين فيها . . . وأضاف إلى تلك الأشعار أشعارا أخرى يبعدأن تكون صادرة عنهم، كما أضاف إليها قصصاً وأحاديث وحكايات مخترعة، قصد بها التسلية والتمثيل . فعلى هذه الرواية التى وجدت فى مقدمة ديوان عنترة تكون

هذه القصة كتبت فى مصر ، كما قالوا عن غيرها من القصص الأخرى التى تظهر فيها المسحة المصرية والصبغة العقلية لأهل مصر من فكاهات وغيرها .

ولكن كان لظهور بعض القصص التى نقلت عن الهندية والفارسية كما قلنا — أثر عظيم، فقد نشرت فى الأدب العربى بأساليب مختلفة، وفى موضوعات مختلفة ، بعضها أعجمى وبعضها عربى ، وسبب انتشار هذه القصص — ولا سيما الأعجمية منها — أن أندس بين العرب أيام الدولة العباسية كثير من الأجانب الدخلاء ، وكان أكثر هؤلاء من العامة الذين يميلون إلى الأخبار الخرافية والأخيلة الغريبة، وكان التجار الذين يترددون على الهند وفارس وبلاد العرب يحملون شيئا من هذه القصص والأخبار ، وينشدونها فى المجالس بين العامة والخاصة ، وهذا أصل الميل إلى نقل تلك الحكايات الفارسية أو الهندية إلى العربية، ثم زاد الناس على هذه القصص وأضافوا إليها شيئا من صور حياتهم الاجتماعية والسياسية ، وهكذا أخذ هذا الأسلوب القصصى ينتشر بين العامة حتى امتلأ باللهجة العامية ، واشتغل به بعض الأدباء، وجرى على ألسنتهم، فأدخلوا فيه شيئاً من الأشعار والعبارات الصحيحة والأساليب البليغة ، وظهرت فيه حكايات هى خليط من الهندية والفارسية والحياة الإسلامية ، ولهجات العامة والخاصة، والحوادث المختلفة للخلفاء والأمراء والعلماء والجهلاء والرجال والنساء والكبار والصغار .

والمتأمل فيما كتب من القصص فى لغة العرب ، يرى أنها مأخوذة من أصول مختلفة، وأنها تختلف من حيث التكوين الفكرى والأسلوب الفنى الكتابى على حسب ما ترمى إليه . فمنها :

١ — القصص التى هى أحاديث عن العرب ، وسرد لسيرتهم وأخبارهم وما كان يحدث فى مجالسهم ومجتمعاتهم، مما امتلأت به كتب الأدب العربى، من صور العصر الجاهلى والعصور الإسلامية ، وما كان يجرى فى مجالس الخلفاء

والأمراء والمغنين ، فهذا النوع من الكلام لا يدخل فى باب القصص الفنية التى وصفناها وإنما يدخل فى باب الرواية والأحاديث .

٢ ــ الأسلوب القصصى الفنى الذى جاء إلى لغة العرب مما نقل إليها من الفارسية أو الهندية أو غيرها، ككليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، وغيرهما مما ذكره ابن النديم فى باب الأسمار والسير .

٣ ــ القصص التى كتبت على نمط القصص المترجمة، وحاكى فيها مؤلفوها أساليب التفكير الفارسية أو الهندية على ألسنة الحيوان والبهائم وغيرها مما أخذه الكتاب من تاريخ الفرس أو الهنود . قال ابن النديم فى كلامه على الكتب التى صنفت فى الأسمار والخرافات « . . . ابتدأ أبو عبد الله محمد بن ابن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء، بتأليف كتاب اختار فيه ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم . . . وأحضر السامرين فأخذ عنهم أحسن مايعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات مايطيب له (وكان فاضلا) فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة وكل ليلة سمر تام . . . وكان قبل محمد يعمل الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ــ جماعة، منهم عبد الله بن المقفع، وسهل بن هارون ، وعلى بن ابن داود . فهؤلاء جماعة من الكتاب كانوا يؤلفون فى القصص ويحاكون الفرس وغيرهم فى الأساليب القصصية » .

٤ ــ ظهر بعد هؤلاء جماعة من الكتاب ألفوا فى تاريخ العرب وكبار رجالهم وفرسانهم وحروبهم ــ قصصا، ولكنها كانت دون تلك، من حيث صحة العبارة وحسن التأليف؛ لأنها خليط من اللغة الفصحى والعبارات العامية ونقل مافى كتب الأدب المعروفة : من شعر ونثر ، ويظهر أن مؤلفيها رأوا مجارات العامة فى لهجاتهم، كما ترى ذلك فى قصة عنترة وبكر وتغلب وسيف بن ذى يزن

ومايشبهها،ويظهر أيضا أن هذه القصص كتبت كلها أو جلها في مصركما أشرنا إلى ذلك .

٥ — القصص التي كتبها بعض علماء اللغة والأدب ، وهي قصص لغوية أدبية،وليست من السير أو الكتابة التي تمثل الأحوال الاجتماعية،مثل رسالة الغفران لأبي العلاء ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي.

٦ — القصص التي ذاعت في العصور الأخيرة، وأخذت موضوعاتها من بعض الحوادث الغرامية ، وبعضها من قصص الأنبياء ، وبعضها من الأساطير والخرافات، وقد ذاعت هذه القصص فيما بعد القرن الرابع .

٧ - القصص الفنية اللغوية الصناعية المسماة بالمقامات .

أما مقامات الهمذاني والحريري فهي على غير أسلوب تلك القصص العامية المملوءة بالأخطاء واللحن ، وليست شبيها بها من حيث موضوعاتها ؛ لأن تلك الموضوعات إما فارسية أو هندية،أوعربية مقتبسة من تاريخ الفرسان والأبطال فقد عبث بها الخيال ولعبت بها أهواء العامة .

والمقامات ليست على هذا الطراز،لأنها كتبت بعبارة عربية صحيحة،وأخذت حوادثها من مشاهدات الكتاب وأحوال الاجتماع والعصور التي كانوا يعيشون فيها،ولاشك في أنه كان للحالة العقلية التي ذاع أمرها إبان القرن الثالث والرابع في بلاد العراق وفارس وخراسان — أثرعظيم في انتشار هذا الأسلوب،فقد كانت هناك نهضة علمية أدبية،أثارتها المنافسات بين الدول التي كانت تحكم إذ ذاك: كالدولة السامانية في خراسان وتركستان،والبويهية في فارس والعراق،والغزنوية في أفغانستان وغيرها،فكان هذا سببا في انتعاش الحياة الفارسية الأدبية التي قام بها هؤلاء لنشر لغتهم وآدابهم ، ففي زمن الهمذاني والصاحب بن عباد والخوارزمي — علا نجم اللغة الفارسية ، وكان ملوك الدولة السامانية وغيرهم من ملوك الفرس يساعدون على ذلك ، فظهر جماعة من كبار شعراء الفرس .

وفى هـــذا الزمن نظمت الشاهنامة ، ونقلت بعض الكتب العربية إلى الفارسية ، ككتاب تاريخ الطبرى الذى ترجم إلى لغة الفرس لمنصور السامانى وكان الشعراء ينظمون بالعربية ، والفارسية ويجيدون اللغتين ، وينقلون الشعر من الفارسية إلى العربية،أو من العربيةإلى الفارسية، كما فعل بديع الزمان الهمذانى فى حضرة ابن العميد ، فقد كانت تمتحن مقـدرتهم فى الشعر بذلك . وقد نقل أبو الفضل أحمد السكرى المرزوى كثيرا من الأمثال الفارسية إلى العربية، كما ذكر الثعالبي ذلك فى كتابه (يتيمة الدهر) كل هذا أوجد فى اللغة العربيةحالة لم تكن معروفة قبل ذلك،وقد عاش بديع الزمان الهمذانى فى هذه البيئة،وكتب مقاماته فى نيسابور،فظهر فيها أثر التفكير الفارسى، وفى هذا العصر انتشر ذلك المذهب الكتابى المملوء بالصناعة والسجع والتعمل والتكلف،وكان هناك جماعة يمثلون هذا المذهب الجديد،وعلى رأسهم ابن العميد والصاحب بن عبادوأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى،فنشأ بديع الزمان فى هذه البيئة وكان يجيد الفارسية،وتربى هذه التربية الممزوجة بالثقافة العربيةوالفارسية،ومن هنا تمكنت من نفسه ملكة الكتابة القصصية فكتب مقاماته الشهيرة التى كانت نموذجا لهذا النوع من الكتابة القصصية،ورغم أن بن دريد سبقه بأحاديث نشرها،فهو أجدر بنسبة هذا الأسلوب إليه منه . أما موضوعات مقاماتهفقد أخذها كما قلنا من أحوال الناس الذين كانوا يعيشون فى عصره،ثم من بعض أحواله الخاصة فقد رسم فيها صور بعض هؤلاء الناس ، ولا سيما الأدباء الفقراء الذين كانوا يسألون ويتكسبون من آدابهم،وقد عالج موضوعات أخرى بعضها عقلية وبعضها لغوية ، ثم جاء الحريرى واقتفى أثره ، بل حاكاه محـــاكاة تامة فى الأسلوب والموضوعات،وفاقه فى كثير منها،وأمعن فى الصناعة اللفظية إمعانا،وافتن فى ذلك افتنانا . وجملة القول أن هذه المقامات اشتملت على بعض المسائل الاجتماعية وعلى وصف بعض النفوس، ولكن لم يكن الغرض الأول منها الكتابة القصصية

الفنية، بل إظهار البراعة فى أساليب الكتابة المسجعة وأنواع الشعر الصناعى، وتنميق الأسلوب، وهذا يدل على أن الفن القصصى كان فى بدء نشأته، فكان يحتاج إلى زمن طويل، وإلى أساليب متعددة تكتب فى مثل هذه الموضوعات، وإلى تطور وانتقال، حتى يصل إلى درجة النضوج، على أن هذا الأسلوب القصصى شاع فى أواخر الدولة العباسية، وقت تمكن السجع وأنواع البديع من نفوس الكتاب فقيدهم باتباع هذه الأساليب، ولو أنهم كانوا فى عصر آخر، أولو أن كتاب اللغة العربية من الأدباء استمروا فى الكتابة على هذا النمط — لوجد فى هذه القصص أسلوب سهل آخر، يكون نموذجا للكتابة النثرية القصصية الفنية على أن أسلوب المقامات بقى متمشيا فى جميع عصور اللغة، ولكنه بقى أيضاً أسلوباً صناعياً، ومهما يكن من أمر مقامات الهمذانى والحريرى من حيث احتواؤها على بعض المسائل النفسية والاجتماعية، فهى تحسب قصصاً أدبية لغوية، لاشتمالها على كثير من غريب الصناعة اللفظية، أكثر من اعتبارها قصصا اجتماعية.

ألف ليلة وليلة

هذا الكتاب هو أشهر الكتب القصصية فى لغة العرب، بل ربما كان المثال الذى احتذاه كتاب القصص العربية منذ القرن الرابع الهجرى، وساروا على نهجه حتى فى القصص التى أخذوا موضوعاتها من تاريخ العرب، وجعلوا أبطالها من فرسان العرب ورؤسائهم. وقد كان لظهور هذا الكتاب باللغة العربية إبان القرن الثالث الهجرى - كما يقول المؤرخون — شأن عظيم فى عالم الأدب، لأنه لم يكن يعهد قبل ظهوره هذه الأحاديث العجيبة، ولا هذه الصور التاريخية الغريبة فى أدب من آداب الأمم، كما أن هذا الخيال الواسع فى خلق الأساطير وقصها لم يعرف فى اللغة العربية قبل ظهور هذا الكتاب، وقد انتشرت هذه القصص فى مصر زمن الفاطميين، فنشرت الأسلوب القصصى فى الكتابة، وتولد من

قراءته فى نفوس المصريين الميل إلى الكتابة القصصية، التى ظهر فيها أثر العقل المصرى المملوء بالفكاهات والملح وأخبار الجن والعفاريت

أصل الكتاب وآراء الباحثين فيه : عند ماذاع أمره فى أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر ، أقبل على دراسته علماء الأدب ، وترجم إلى لغات متعددة وكان المستشرقون أول من عنى بدراسته، وأول بحث ظهر فى ذلك كان للمستشرق الفرنسى الشهير (سلفستر دى ساسى) فى سنة ١٨١٧ م واستمر فى بحثه إلى سنة ١٨٣٣ م فكتب عدة مقالات فى أصل هذا الكتاب ، وقفا أثره من غيره من المستشرقين .

وقد اختلفت آراء هؤلاء الباحثين فى أصل هذا الكتاب، معتمدين فى ذلك على رأى المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) فى أثناء كلامه على (أرم ذات العماد) إذ قال (وسبيلها سبيل الكتب المنقولة إلينا ، والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية، وسبيل تأليفها ماذكرنا مثل كتاب (هزار إفسانة) وتفسير ذلك من (الفارسية إلى العربية) ألف خرافة . والخرافة بالفارسية يقال لها إفسانة، والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتهما وهما شهرزاد ودنيازاد ، ومثل كتاب (مرزه وشماس) وما فيها من أخبار ملوك الهند والوزراء، ومثل كتاب (السندباد) وغيرها من الكتب فى هذا المعنى [١] .

واعتمد الباحثون أيضا على عبارة ابن النديم التى قال فيها: (أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان ـ الفرس الأول، ثم أغرق فى ذلك ملوك الأشغانية وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس ، ثم زاد ذلك واتسع فى أيام ملوك السلسانية، ونقلته العرب إلى اللغة العربية، وتناولته العلماء والبلغاء فهذبوه ونمقوه وصنفوا فى معناه ما يشبهه

(١) مروج الذهب ح ٩ ص ٩٠ طبع باريس

وأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب (هزار إفسانة) (١)

قالوا وكان السبب في وضعه ، أن أحد ملوك الفرس كان يتزوج كل يوم بفتاة،فإذا طلع عليها فجر اليوم التالي، قتلها وتزوج من غيرها،وفعل بالثانية مثل مافعل بالتي قبلها،ثم تزوج أخرى وهكذا ... إلى أن ضجر سكان المدينة منه وضجوا من عمله،فوهبت له نفسها بنت أكبر وزرائه،وكانت ذات عقل وحكمة تسمى (شهر زاد) فلما كانت معه،أخذت تحدثه أحاديث خرافية ملكت عقله ففي أول ليلة لم تتم حديثها،بل أبقت له بقية اشتاق الملك إليها، فأبقى على محدثته إلى الليلة التالية حتى تتم حديثها،فلما جاءت الليلة الثالثة أبقت له بقيـــة أيضا فتركها الملك لتتم حديثها ،وما زالت كذلك في كل ليلة والملك يصغي إلى حديثها ويتشوق إلى بقيته حتى نسي عادته الممقوتة،وبذلك أنقذت بنت الوزير فتيات بلدها من يد هذا الطاغية، وكانت أتمت حديثها في ألف ليلة وليلة .

ولـكن هذه الآراء لاتدعو إلى الجزم بصحتها ، لأنها روايات لا يعتمد قائلوها على برهان قاطع،ولهذا اختلف الباحثون في ذلك،فقال بعضهم إن أصله فارسي،وقال آخرون بل أصله هندي ، وآخرون قالوا : إنه خليط من حكايات فارسية وهندية،بل رأى بعض الباحثين أنه كتب زمن العباسيين،على أثر انتشار أخبار الفرس وحكاياتهم على ألسنة العامة ، ثم زيدت عليه قصص أخرى في أماكن وأزمان مختلفة ، وقد بلغ الاضطراب في روايات هؤلاء الباحثين أن نفى بعضهم كل أثر فارسي أو هندي في هذه القصص ، وخطأ السعودي في روايته وأيد رأي المسعودي عالم ألماني مستشرق،وقال العالم الأنجليزي (لين) إن الكتاب كتب بقلم واحد بين سنة ١٤٧٥ - وسنة ١٥٢٥ م ، وقسم أحد علماء الألمان (مولر) الكتاب أقساما : قسما منه كتب في بغداد ، والقسم الاكبر كتب في مصر ، وبعضهم قسم الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول يشتمل

(١) فهرس ابن النديم من ص ١٠٤

على القصص التى نقلت من الأصل الفارسى (هزار إفسانة) والقسم الثانى قصص كتبت فى بغداد ، والقسم الثالث قصص كتبت فى مصر، وأضيفت إلى الكتاب وضمت إليه حكايات مثل حكاية الملك عمر بن النعمان وأبيه

وجاء بعد هؤلاء المستشرق البلجيكى (شوقان) وقال إن القصص التى كتبت فى مصر، كتب قسما منها كتاب من اليهود . وأرجح هذه الأقوال على ما يظهر — هو أن الأصل الأصيل لهذا الكتاب هو القصص الفارسى الذى ترجم إلى اللغة العربية فى القرن الثالث الهجرى المستمد أكثره من أصل هندى، فإنه بمقارنة ألف ليلة وليلة العربية بالكتاب الأصلى، يرى أن هذه القصص العربية هى بعينها تلك القصص الأصلية، مع تغيير ضئيل اقتضته الترجمة أو أن ماحصل من التغيير هو فى بعض الصور والأسماء القديمة ، التى استبدل بها غيرها من الصور والأسماء العربية ، ففى النسخة العربية أسماء فارسية مثل (شهر زاد) و(شاه زمان) وحكايات تشبه مافى القصص الهندية فى أسلوبها وموضوعاتها مثل حكاية التاجر العارف بلغة الحيوان ، ومثل تسلسل الحكايات ودخول بعضها فى بعض آخر، وطريقة ذكر القصة لإلهاء السامع والوصول إلى غرض معين ، هى طريقة الحكايات الهندية . وهناك بعض قصص هندية محضة ، مثل قصة الوزراء السبع ، ومثل قصة التاجر والجنى، والصائد والجنى ، وفى الكتاب عبارات هندية مثل العبارات الآتية (يلزمك ألا تفعل هذا حتى لايحصل لك مثل ماحصل لفلان) وكالعبارة المكررة كثيرا ، وهى سؤال رجل لآخر (وكيف ذلك) فهذه العبارات نفسها فى الترجمة العربية وهى تشبه مافى القصص الهندية المنتشرة فى أيدى العامة . كما أن هناك قصصا مأخوذة من الفارسية والأمثلة على تلك معروفة . فهذا دليل على أن الكتاب مأخوذ من أصل فارسى وهندى، زيدت عليه حكايات أخرى وصور أخرى من الحياة العربية الإسلامية

أقسام قصص ألف ليلة وليلة ومميزاتها :

إنه برغم التشابه الذي قد يكون بين هذا الكتاب وأصله الفارسي، لابد أن يكون قد أدركه كثير من التغيير والتبديل . وتفصيل الكلام في ذلك قد يخرج بالباحث عن الحقائق إلى الظن والتخمين ، ولكن يمكن أن يقال على وجه الإجمال على حسب آراء الباحثين . إن القصص التي ترسم حياة الأسر النبيلة أو الأسر المثرية أو الطبقة المتوسطة ، أو القصص التي بها الحوادث الغرامية، والتي يذكر فيها أسماء الخلفاء ، كهارون الرشيد — هي من القصص التي كتبت في بغداد .

والقصص التي تكثر فيها الفكاهات والنكت البلدية ويذكر فيها الجن والعفاريت وبعض الآراء المألوفة لنا في مصر، وصور الحياة المصرية ، وذكر المدن المصرية — هي قصص مصرية . على أنه قد يجد القارىء ذكر الجن في القصص التي ترجمت عن الهندية، ولكنه لا يجد فيها ما في القصص المصرية من اتصال هذه العفاريت بالسحر وما يشبهه وقد يكون في القصص المصرية شيء من المجون، ويقول بعض الباحثين: إن هذا النوع من القصص المصرية التي يكثر فيها ذكر العفاريت والمجون ، كتبت بأقلام الإسرائيليين الذين أسلموا واستدل على ذلك بما فيها من الأسماء العبرية كما سيأتي في الكلام على القصص الإسرائيلية .

لقد تبين من ذلك أن الباحثين جعلوا قصص ألف ليلة وليلة ثلاثة أنواع قصصاً فارسية هندية، وقصصاً كتبت في بغداد وقصصاً كتبت في مصر، وقد عرفنا القصص الفارسية الهندية وجمل أوصافها، وأن القصص التي كتبت في بغداد وهي ما يذكر فيها صفة أهل بغداد، ووصف الحياة هناك في القرن الثاني الهجري وذكر هارون الرشيد، وغير ذلك مما يمثل الحياة الإسلامية إذ ذاك .

أما القصص التي كتبت في مصر فهي قسمان : ما كتبه مسلمون وما كتبه إسرائيليون؛ ولكل مميزات نجملها إجمالا فيما يأتي :

القصص المصرية ومميزاتها :

لقد يجد القارىء المصرى لبعض قصص ألف ليلة وليلة — تشابها بينها وبين ماهو مألوف من أسلوب أحاديث العامة أو الخاصة، وماهو معهود من أخلاق وعادات مصرية، سواء أكان ذلك فى الأحوال الاجتماعية أو النفسية. ولقد تكون هذه القصص مكتوبة بأسلوب عربى مصرى، أو لهجة مصرية، وهذا مايحمل على التصديق بأن هذا الكتاب قد احتوى على قصص مصرية كتبت فى مصر، وبأقلام كتاب مصريين، وتمتاز هذه القصص بصفات: منها أن موضوعاتها ليست خيالية بحتة بل مأخوذة من الحياة العامة المصرية، وأن ليس الغرض منها جذب القراء إليها بما فيها من الغرائب والعجائب التى لا يصدقها إنسان عاقل، كما فى القصص الفارسية أو الهندية المملوءة بالأساطير والخرافات. ومنها أن الكاتب يعتمد فيها على مافى نفسه من أثر الحوادث التى شاهدها فى حياته، ورسم الأشخاص الذين عرفهم ورآهم وأنه إذا وجد شىء من الأساطير فإنه يكون بقدر الحاجة. ومن صفات هذه القصص أن الأشخاص الذين فيها هم جميعا ممن يعيشون بكدهم، ولا تكاد نجد بينهم من ساعدهم الحظ فأصبحوا من الأغنياء، أو نكبتهم الأيام فصاروا من الأشقياء، لأنهم يعتمدون على المصادفات؛ لهذا نجد الكاتب المصرى كثيرا مايتكلم عن الصناعات، ويذكر رجالا من التجار يتكلم عن تجارتهم وسلعهم كما فى قصة الأحدب، وكما فى الكلام على «أبو قير ومصبغته» و«أبو صير وحمامه» وغير ذلك. ومن هذه القصص قصة معروف الإسكافى المشهورة. وبمناسبة ذلك قال بعض الباحثين إن غير القصص المصرية مملوءة بالخيال والمبالغة والأثرة أو حب النفس، وإنها عبارة عن حلم شعب خامل يود أن يعثر فى إثناء فسحة على المعادن والجواهر ليصبح من الأغنياء. ومن صفات القصص المصرية أن شخصية الكاتب فيها ظاهرة تمثل نفسه، وكأنه يدرس موضوعا شاهده فهو يتوسع فى شرحه؛ ومنها

أن أكثر هذه القصص قصيرة،وأن الصبغة المصرية ظاهرة فيها ، من الفكاهة والنقد الحلو وخفة الروح . ومن أعظم مميزاتها أن كاتبها عارف بالافتنان والأساليب القصصية،عالم بكيفية سرد الحوادث وقصها ، مما لا يوجد في غيرها من القصص،كما لاحظ ذلك الباحثة الألماني (كرامر) وكما يرى في قصة معروف الاسكافي،وعلى الجوهري،وقصة التاجر على المصري،والتاجر حسن الجوهري، وقد لاحظ الباحثون أن القصص المصرية كثيرا ماتتشابه في الحوادث والموضوعات،ووجدوا أن في بعضها إطراء للمرأة المصرية ، كما في الكلام على قر الزمان . وهناك مميزات أخرى تظهر للقارىء في أثناء قراءته ، فيشعر بأنها كتبت بأقلام مصريين وعقول مصرية .

القصص الإسرائيلية المصرية ومميزاتها

تمتاز القصص الإسرائيلية المصرية التي كتبها إسرائيليون مصريون ـ قد يكون بعضهم اعتنق الإسلام ـ بأشياء منها : ذكر الأسماء والأماكن العبرية كسليمان وداود وآدم وبيت المقدس،وذكر المسائل التاريخية العبرية كوصف الأرض وارتكازها مما أخذ عن كلام وهب بن منبه ،وكمحاربة العفاريت بعضها بعضا وتحول إنسان إلى رماد ، وكحكاية الشرير الذى اختطف رجلا وطار في الهواء فأصابته ضربة من حربة ملتهبة أرسلت إليه من الملائكة، وكالقصة التي ذكر فيها أن أعرابيا زار هاروت وماروت،اللذين كانا مسجونين في بئر في بابل،فلما رأى طولها العظيم العجيب فزع من هذا المنظر،فذكر الله تعالى،فانطوى جسمهما وصار على شكل مربع وكان يرافق العربي في هذه الزيارة يهودى . وقد رأى بعض الباحثين أن الغرض من أمثال هذه الحكايات التهكم بالمسلمين .

ومن أشهر الحكايات الإسرائيلية حكاية (بلوقيا) المذكورة ضمن قصة حاسب كريم الدين بن دنيال الحكيم ، إذ يظهر أن كاتبها وقف على قسط

وافر من الأساطير الإسرائيلية ، كذكر الحياة وأثرها ، والسعى فى الحصول على خاتم سليمان، وذكر الغرائب والعجائب ، فمن أمثال ذلك: أن الله خلق جبلا قدره مسيرة خمسمائة عام ، وهو من الثلج والبرد ، وهو الذى رد حر جهنم عن الدنيا، ولولا ذلك الجبل لاحترقت الدنيا من حر جهنم، وأن الأرض سبع طبقات يحملها ملك، وتحت الملك صخرة ، وتحت الصخرة ثور ، وتحت الثور حوت والحوت فى بحر تحته هواء ، وتحت الهواء نار ، وتحت النار حية عظيمة، ولولا خوف الحية من الله تعالى لابتلعت جميع ما فوقها ، وأن الجنة فتحت فاها فأدخلت جهنم فى بطنها، وقيل لها احفظى جهنم إلى يوم القيامة ، فإذا جاء يوم القيامة أمر الله الملائكة أن يأتوا معهم بسلاسل يقودون بها جهنم إلى المحشر (راجع القصه فى الجزء الثالث من ألف ليلة وليلة صفحة ٢٠٠ من طبعة بيروت) .

ومن أساطير هذه القصص الإسرائيلية ، أنه لما توفى سليمان عليه السلام وضعوه فى تابوت وعدوا به سبعين بحرا. وكان الخاتم فى أصبعه، ولا يقدر أحد من الإنس ولا من الجن أن يأخذ هذا الخاتم ... وأنه وجد فى بعض الكتب أن بين الأعشاب عشبا كل من أخذ منه شيئا وعصره وأخذ ماءه ودهن به قدميه فإنه يمشى على أى بحر خلقه الله تعالى ولا تبتل قدماه، ولا يقدر أن يحصل إنسان على هذا العشب إلا إذا كانت منه ملكة الحيات ... وكثير من مثل هذه الأساطير الإسرائيلية، ومن الأدلة على أنها إسرائيلية ، وأن كاتبها إسرائيلى مصرى — أنه جاء فى هذه القصه أن (بلوقيا) عند ما دخل بيت المقدس كان يقرأ فى التوراة، وقد سئل عن اسمه فقال بلوقيا ، وأنه من مدينة مصر . هذا فى جملة وصف القصص الإسرائيلية المصرية، المملوءة بالأساطير الاسرائيلية الممزوجة ببعض الصفات المصرية، مما يدل على أن كتابها أسرائيليون مصريون، أسلموا أولم يسلموا ؟

احمد ضيف

المملكة الفاضلة لسير توماس مور

(١٥٣٥ – ١٤٧٨)

Sir Thomas More

للأستاذ عبد الرزاق حميدة

فى السنة التى مات فيها كاكستن « Caxton » أول من أدخل الطباعة فى انجلترا – عرف الناس فى بيت رئيس أساقفة كنتربرى غلاما ذهبى الشعر أزرق العينين ، مرحا طروبا ، ذكيا حسن الأخلاق ، تنبأ له كل من عرفه فى صباه أنه سيكون رجلا له شأن ، ولم يكن ذلك الغلام إلا توماس مور .

ولد فى لندن سنة ١٤٧٨ وتعلم بها، واتصل برئيس الأساقفة اتصال تلمذة، وكان من عادة هذا القسيس الأعظم أن يحتفل فى داره بعيد الميلاد احتفالا عظيما ، وكان من بين الاحتفال روايات تمثل فى العيد ، وكان توماس مور كثيرا مايقوم بين المحتفلين فيمثل دورا من عمله ، فاستلفت أنظار الأسقف الأعظم . وبعد زمن أرسله إلى أكسفورد ليتعلم بها تعلما راقيا .

وكان من عادة كل متعلم أن يكتب اللاتينية ويقرأها ، وكان اطلاعهم على آثار الكتاب اللاتين حتما ، غير أن معرفتهم بالإغريقية كانت معرفة تامة، وكان لأدباء الإغريق منزلة لاتدنو منها غيرها ، حتى منزلة الكتاب اللاتين. وفى أكسفورد رأى سير توماس كثيرا من العلماء يدرسون الإغريقية

وأثارها ، وكانت هذه اللغة معروفة فى كل دوقيات أوربا ، بعد فرار علماء القسطنطينية من وجه الفاتحين الأتراك ، ووصلت هذه اللغة إلى انجلترا وتعلمها الناس،وقرءوا العهد القديم بالإغريقية ، وتعلموا بجانب ذلك فنون الإغريق ، ودرسوا المبانى والتماثيل التى أقامها هؤلاء ، وحاولوا أن يشيدوا مثلها .

وقد شرب توماس مور من الكأس الجديدة حتى روى ، ودل فى الجامعة على أنه من خير الطلاب وأحسنهم ، ولما أتم دراسته أصبح محاميا ، وكاتبا ، وشاعرا ، وفى الخامسة والأربعين من عمره انتخب مقررا لمجلس النواب الإنجليزى . أما فى المحاماة فلم يكن له نظير فى بلاده .

لم يكن عبؤه فى البرلمان خفيفا ، ولكنه كان إذا فرغ من عمله عاد إلى بيته وأتم مابقى من واجباته ، ثم انصرف إلى أولاده يلعب معهم ويمزح .

ولم يكن هناك من هو أكثر منه عطفا على الحيوان ، وكان عنده فى منزله شبه حديقة حيوان ، فيها الثعالب والقردة والكلاب وغيرها . أما حبه لبيته ، وتعلق أهله وذويه به فكان مضرب الأمثال.

كان صديقا لأرزمس ، وكان إنسانيا « Humanist » امتلأ قلبه بالرحمة وحب الخير للناس ، وكان كريم الأخلاق جدا ، حتى قال فيه صديقه العظيم إرزمس « لم تجد الطبيعة بأخلاق ونبل مثل أخلاقه ونبله » .

وارتقى فى المناصب حتى صار قاضى القضاه ، فكان جد عادل ، وكان ينجز أعماله بسرعة غريبة ، حتى قيل إنه كثيرا ما كان ينتهى من أعماله حوالى الساعة العاشرة صباحا .

ولكنه بعد أعوام قليلة،فقد مكانته لدى الملك هنرى الثامن ، فأقاله هذا الملك من منصبه ، وسجنه فى برج لندن ، وهنا مرض مرضا شديدا ، غير أنه ظل على هدوئه وانشراحه ، واشتغل بجد طول يومه فى البرج — وأخيرا ساءت حالته المالية،حتى اضطرت زوجه أن تبيع ملابسها من أجل طعامه .

وأخذت منه كتبه،فأغلق عليه أبواب قاعته فى السجن ، وقضى معظم وقته فى الظلام .

وفى صباح يوم من أيام سنة ١٥٣٥ ، سيق هذا الرجل العظيم النبيل من السجن إلى جبل البرج ، فى طريقه إلى الموت ، فسار هادئا كما لو كان ذاهبا ليتناول غداءه . وعندما وصل إلى ساحة الموت،ضرع إلى حاكم البرج أن يأخذ بيده إلى المشنقة ، وأن يتركه بعد أن ينفذ فيه القضاء يتدحرج وحده . وداعب الجلاد ورجاه أن يؤدى واجبه على أحسن وجه ، ثم وضع رأسه على الوضم ففصلتها فأس الجلاد عن جسده .

« يوتوبيا » أو المملكة السعيدة

أما كتابه المرسوم « يوتوبيا Utopia » فقد أنشأه فى اللاتينية وهو فى الثلاثين من عمره ، وقد ظهر فيه أنه قوى الملاحظة حكيم العقل ، حوارى أفلاطون وتلميذه . وقد ترجم هذا الكتاب إلى الانجليزية فى سنة ١٥٥١ بعد موته بستة وثلاثين عاما .

كانت انجلترا فى أيام إنشاء هذا الكتاب بلدا بائسا ، ينفق الملك والنبلاء كل ثروته فى حروب داخلية من أجل السلطة ، وعلى شهواتهم ولذاتهم .ونتج عن ذلك أن أهملت الأرض الزراعية ، وأصبح كثير من الناس لايجدون طعاما ، وانتشرت الشحاذة والسرقة ، واختل الأمن ، وكثر القتل فى السارقين وعمت الأوبئة وكثرت الطواعين .

لما رأى مور تلك الحالة السيئة التى انحدرت إليها بلاده ، أراد أن يوجه الملك والأغنياء وجهة نافعة للفقراء ، فألف هذا الكتاب ، وتحدث فيه عن المدينة الفاضلة التى يتمنى أن تكون ، والتى يتمتع كل فردفيها بالسعادة والثروة والخير الكثير ، وقرأ الناس هذا الكتاب بشوق ولهفة ، وتعلموا منه كيف تكون الحياة الطيبة ، والعيش الرغيد

يقص علينا فى مطلعه أنه ذهب إلى « أنفرس » وقابل بها صديقا قدمه إلى شخص غريب لفحته الشمس ، ويبدو من شكله أنه بحار ؛ وفى بيت هذا الصديق تحدث الغريب إلى مور حديثا طويلا ، وأخبره أنه رحالة كبير عاش فى جميع بلاد الدنيا ، وأن خير البلاد عنده هى جزيرة « يوتوبيا »

أما الجزيرة فتشبه هلالا،ويشقها بحر تجارى تجرى فيه الفلك بنعمة الله من مكان إلى مكان ، وعلى شطآنه كثير من المرافىء . وفى الجزيرة كثير من المدن الكبيرة التى لا تبعد واحدة منها عن الأخرى بأكثر من رحلة يوم على الأقدام ؛ أما الحاضرة ففى الوسط ، ويفد إليها كل عام ثلاثة من حكماء الجزيرة ليضعوا القوانين ، أو يعدلوها ، وكانت مزارع الجزيرة جيدة ، وفى كل مزرعة أربعون رجلا،يشرف عليهم أبوان صالحان ولكل ثلاثين مزرعة رئيس ، وكان على كل فرد أن يقيم عامين فى المزرعة ثم يغادرها إلى المدينة ، ليحل مكانه شخص من المدينة،وبهذا تعلم كل شخص فى الجزيرة فلاحة الأرض .

وكان الفلاحون يحرثون ويحصدون ، ويربون الأنعام ، ويقطعون الأخشاب ، ويحملون كل ذلك إلى المدن القريبة برا أو بحرا . وكانو يربون الدجاج ويجعلونه يفرخ بوضع البيض فى أماكن دافئة صالحة لفقسه ، ولما كانت الجزيرة تغل أكثر مما يحتاج اليه سكانها فقد خزنوا الزائد من غلاتها إلى الأيام العجاف ، أو باعوه إلى الأقاليم الأخرى .

وكان نساء المدن ورجالها يخرجون لمساعدة الفلاحين أيام الحصاد .

أما المدن فكانت كلها متشابهة ، أقيمت على سفوح التلال ، وكان يجرى تحت كل مدينة نهر واسع ضاف،عليه جسور من الحجارة البيضاء ، تمخر السفن فى مائه إلى البحر ؛ وكانت حياة هذه الأنهار تساق فى قنوات ، وكان يحيط بالمدن أسوار عالية حولها خنادق تحصنها من اليأس ، وكانت البيوت واسعة جميلة ، ذات نوافذ زجاجية ؛ ولكل بيت بابان أحدهما فى الشارع ،

والآخر فى الحديقة ، وهذه الأبواب مفتحة دائما ، وكان كل شىء فى المدينة ملكا مشاعا بين السكان .

وكان على كل فرد أن يتعلم بجانب الزراعة صناعة أخرى ، كالنسيج أو البناء ، ولكل فرد ما يناسب قوته من عمل ، وقد وكات كل أسرة بصنع ملابسها وعمل رب الأسرة أن يشرف عليها ، فلا يسمح لأحد فيها بالكسل ولاالإجهاد .

وكانوا يشتغلون ست ساعات من الأربع والعشرين ، ثلاثا قبل الغداء وثلاثا بعده بساعتين . وفى الساعة يذهب كل شخص لينام ، أماأوقاتالفراغ فكانوا فيها أحرارا يعملون ما يشاءون ، ولكن غالبا ما شغلوا هذه الأوقات بالدراسة والاستماع إلى محاضرات ، وكانوا يلعبون ساعة بعد العشاء فى حدائقهم ، ويستمعون إلى الموسيقى ، وكانوا مغرمين بلعب شطرنج ، أحجاره من الأحياء .

وكانت كل أسرة فى المدينة محكومة بالأكبرسنا ، وإذا صغرعددها ضمت إليها أناسا آخرين ، وإذا زاد عددها ساعدها غيرها من الأسر الصغيرة الكثيرة ، فاحتملوا عنها عبء تعرضها وأسكنوهم فى منازلهم ، ولم تكن مدينة تسمح أن يزيد عدد سكانها على ستة آلاف ، وما يزيد يرسل إلى مدن أخرى لم تبلغ العدد،أو تبنى لهم مدن جديدة على طراز المدن القائمة .

كانت المدن مربعةالبناء ، وكل مدينةمقسمة إلى أربعة أقسام ، وفى كل منها مخازن تحفظ فيها البضائع على اختلاف أنواعها ، ليأخذ أرباب الأسر ما هم فى حاجة إليه بلا ثمن ، إذ لم يكن « يوتوبيا » تعرف النقود ، وكان فى كل جزء من المدينة مستشفى يعنى فيه بالمرضى حتى يبرءوا .

أما الأكل فكانت له قاعات خاصة فى المدن يأكل فيها كل السكان . وإذاحان وقت الأكل دق ناقوس خاص يدعوهم إلى الطعام،فيفدون إليها من

كل حدب ، ويأخذون أمكنتهم ، ويقوم الغلمان والفتيات بالخدمة .

ولم يكن للذهب والفضة قيمة فى هذه المدن ، أما الحديد فكانت فيه منافع للناس ، وكان عالى القدر عندهم ، ومن أجرم منهم علقت فى أذنه أقراط من الذهب والفضة دليلا ، وبهذا تعلم الناس أن يحتقروا هذه المعادن النفيسة .

وكان فى « يوتوبيا » مدرسون أكفاء ، والأطفال جميعا يذهبون إلى المدارس . ويشبون على حب التعليم والكتب ، وأما الصيد فكان رياضة وحشية ، وكانت الحرب بغيضة مكروهة ، ولم يكن من القانون إلا مواد قليلة ، لقلة الحمق والمجرمين فى « يوتوبيا » .

تلك هى المملكة الفاضلة التى صورها سير توماس مور ، وهى خيال لم يتحقق،ولكن فضلها كان عظيما فى إيقاظ الأفكار ، وتوجيه الناس إلى الأخطاء التى فى بلادهم،عساهم أن يصلحوا من شأنهم ، وأن يقيموا العدل بينهم ويتعلموا الإيثار ، والرحمة والتعاطف ، ليسود بينهم السلام ، ويعيشوا فى نعمة وعيش رغيد ، وهناءة موفورة

عبد الرزاق حميده

الموسيقا فى الأدب العربي

عرض ونقد وتحليل

- ٣ -

للأستاذ عبد اللطيف المغربي

العصفور : — لقد كان لحديثك الغابر عن موسيقا اللفظ وموسيقا الأسلوب — ماسرنى وبسط أمامى صورا من جمال القول وأسراره ؛ وأحب أن تقفنى على شىء من آراء علمائكم القدامى فى اللفظ والمعنى ؛ لأعرف إلى أى حد عالجوا هذا الموضوع ، وأقدر مبلغ نظرهم إليه ، وعنايتهم به .

أنا — علماء الأدب فى النظر إلى اللفظ والمعنى فريقان : فريق معتدل ، جعل فضيلة الكلام الجيد قسمة عادلة بين اللفظ والمعنى ، كقدامة بن جعفر ، وأبى هلال العسكرى ، وابن رشيق ، وغيرهم ؛ وفريق متطرف ، وهو رجلان ، شيخ الكتاب الجاحظ الذى جعل الحسن كله وقفا على اللفظ ، وغض النظر عن المعنى فقال « والمعانى مطروحة فى وسط الطريق يعرفها العربى والعجمى ، والحضرى والبدوى » ومن عرف ثروة الجاحظ اللغوية ، وسلطانه على الألفاظ وحفله بها ، وبراعته فى الترادف ، وأذنه الموسيقية فى تعرف الألفاظ وتخيرها لها — أدرك سر انحيازه إلى جانب اللفظ ودفاعه عنه ؛ والإمام العالم عبد القاهر الجرجانى الذى مال إلى جانب المعنى ، ونصب نفسه زعيم معارضة للجاحظ ، وكأنه حين رآه يدع كل حسن للفظ — مال هو إلى المعنى ، ونسب إليه كل حسن ، ليقرع رأيا برأى ، ويصدع حجة بحجة ؛ وبهذا وقع فى التطرف كما وقع الجاحظ .

ونسمعك بعض آرائه فى اللفظ واستخفافه به ، وفى المعنى وعطفه عليه ؛ وسترى من ذلك عجبا ؛ قال « فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا — أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظ لمعنى الجملة التى تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشهد لذلك ، أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر . . . إلى أن قال : ومن أعجب ذلك لفظة الشىء ، فإنك تراها مقبولة حسنة فى موضع ، وضعيفة مستكرهة فى موضع آخر ، وإن أردت أن تعرف ذلك ، فانظر إلى قول عمر بن أبى ربيعة المخزومى .

ومن مالىء عينيه من شىء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبى حية :

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول ؛ ثم انظر إليها فى بيت المتنبى .

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم » وعندى أن لفظة شىء فى بيت المتنبى أجمل وأروع منها فى بيت عمر بن أبى ربيعة ، فإن تنكيرها فى بيت المتنبى زادها لطفا وخفة ؛ وإضافتها إلى كلمة غير فى بيت ابن أبى ربيعة جعلتها سمجة فاترة — على أنى أقول . . إن الكلمة لا تقبح فى موضع وتحسن فى آخر لذاتها ؛ وإنما ذلك يتبع النسج والتأليف واختلاف الموجات الموسيقية ؛ فلا دليل للإمام فى ذلك . وقد حمل الإمام على أنصار اللفظ ونال منهم تلويحا وتصريحا ؛ وكرر رأيه فى اللفظ فى صور مختلفة ، فى ثنايا كتابه دلائل الإعجاز ، وأغرق فى سوق الأدلة ماشاء ، فمن ذلك قوله « واعلم أن ما ترى أنه لابد منه عن ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم

الخاص — ليس هو الذى طلبته بالفكر، ولكنه شىء يقع بسبب الأول (يريد المعنى) ضرورة؛ من حيث أن الألفاظ إذا كانت أوعية للمعانى، فإنها لامحالة تتبع المعانى فى مواقعها. فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فى النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا فى النطق» وقوله «وإنك إذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعانى فى النفس — علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها فى النطق».

وقوله «ثم إن العجب كل العجب ممن يجعل كل الفضيلة فى شىء (يريد اللفظ) — هو إذا انفرد (لم يجب به فضل ألبتة، ولم يدخل فى اعتداد بحال، وذلك أنه لايخفى على عاقل، أنه لايكون بسهولة الألفاظ وسلامتها مما يثقل على اللسان - اعتداد، حتى يكون قد ألف منها كلام، ثم كان ذلك الكلام صحيحا فى نظمه والغرض الذى أريد به» وقوله «ومارأينا عاقلا جعل القرآن فصيحا أو بليغا، بألا يكون فى حروفه مايثقل على اللسان، لأنه لو كان يصح ذلك، لكان يجب أن يكون السوقى الساقط من الكلام، والسفساف الردىء من الشعر - فصيحا، إذا خفت حروفه»

هذه نظرة الإمام الجرجانى إلى اللفظ المفرد، من أنه لااعتداد به من غير أن يسلك فى نظم، وليس حسن الكلام بخفة ألفاظه على اللسان، وائتلاف حروفها وانسجامها، بل فضله وحسنه فى نظمه نظما يوافق أصول النحو، ويجرى على نظامه المألوف كما سنعرض له بعد.

ومن غريب أمر الإمام، أنه بعد أن أثار حربا شعواء على اللفظ فى مواضع كثيرة من كتابه، يعود فى وقفات يسيرة، فيسلم بفضله فى إحساس

مكبوت تارة ، وقول صريح تارة أخرى ، فيقع فى التناقض والاضطراب ، فاستمع إليه إذ يقول :

« وهل يقع فى وهم ـ وإن جهد ـ أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة، وتلك غريبة وحشية ؟ أو أن تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد ؟ »

ويقول فى صراحة ووضوح « واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره ونفيل رأى من يذهب إليه ـ أن يجعله معجزا به وحده ، ويجعله الأصل والعمدة ، فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات »

العصفور : حقا إن هذا لغريب . كيف يجمل من الإمام الجرجانى ـ طيب الله ثراه ـ أن يسلك سبيلا ملتويا فى الانتصار للمعنى بلا تحفظ ، كما سلك الجاحظ قبله مثل هذا السبيل فى الانتصار للفظ ، ولست بموافقه على رأيه المجحف باللفظ ، فعندى أن الألفاظ ـ وهى مفردة ـ لها منزلتها وشرفها الكامن فيها أو سخفها ، وذلك بما يحتويه من ائتلاف فى الحروف، وانسجام موسيقى أو خلافهما ، والكلام إذا كان حسنا كانت ألفاظه المفردة حسنة ، فلا يعقل أن يكون الكل حسنا وأجزاؤه غير حسنة ، فيكون الحسن وصفا طارئا للكل منفيا عن أجزائه ، ونظم الكلام إذا كان حسنا ، زاد الألفاظ الجميلة روعة وبهاء ، وإذا كان غير محكم ، غض من حسنها وشوه من جمالها ، وشبيه ذلك العقد من الدرر إذا نظمت حباته على صورة حسنة بارعة ، فقد استوى مثلا عاليا فى البلاغة ، وإذا نظمته على صورة غير متقنة ، فقد قل جماله العام ، وبقى لحباته روعتها الجزئية من الإشراق والصفاء ، وشىء آخر ، وهو أن المعنى فى ذهن الكاتب أو الشاعر ، يحمله إلى معرض الألفاظ ، ليبحث له عن ثوب

قد على مثاله ، وقد يجد للمعنى أو شبهه ثوبين أو أكثر ؛ ولكن أحدهما من خز ناعم ، والآخر من صوف خشن ، فهل يستويان قيمة وانسجاما ؟

والعتق والكرم يقعان فى الألفاظ كغيرها من الأشياء ، وبهذا تفترق ، ويكون للمعنى أكثر من لفظ ، فيحيا واحد ويموت غيره ؛ والمعاجم مملوءة بالألفاظ المهملة التى تخلفت وانفرد غيرها بالبقاء دونها ، واختيار الألفاظ الحية قد قضى به العرف المألوف ، ومهد له الذوق المسيطر ؛ ولهذا وثب مثل هذه الألفاظ إلى عالم الظهور والشهرة واستأثر بالذيوع ، كالقطعة والجفاء ، والواسع والسهر ، والقصير والسحاب ، والذئب والعجب والذكاء ، والبخيل والوثب والظلمة ، وخملت نظائرها وهى على التوالى : العتوارة والعجهرة ، والعذمهر والتعاد ، والفبتر والناهور والنهر ، والهكر والحرمزة والضرز ، والقهمزة والطرمساء .

وسر ذلك يتجلى فيما منحته الألفاظ الأولى من خفة حروف وانسجام موسيقى ، وما حرمته الثانية من صفات الأولى ؛ ومن هنا تدهش لأقوال الإمام التى تلوناها عليك ، ومنها قوله « فقد اتضح إذا اتضاحا لايدع للشك مجالا - أن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة » وقوله فى بعض وصفه للفظ « لم يجب به فضل ألبتة ، ولم يدخل فى اعتداد بحال »

وأعرف من هذا فى الغرابة قوله « وإذا فرغت من ترتيب المعانى فى نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا فى ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة لها » .

وليت الأمر كذلك . إذا لهان الأمر على الكتاب والشعراء ، واستراحوا مما يلاقون من عنت ونصب فى صناعتهم من وراء ربط الألفاظ بالمعانى ، وطلب الملاءمة والمشاكلة بينها . ويكفى أن تترتب المعاني في نفسك فتنثال

عليك الألفاظ انثيالا بلا جهد ولا عناء، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعانى وتابعة، كما يقوم الإمام الجرجانى، وتلك أمنية كما نرجو أن تتحقق فكم يعانى أرباب البيان إذا عرضوا للمعانى التى تجول بأفئدتهم من حيرة وعناء فى اختيار الألفاظ لها، حتى تواتيهم كما أرادوا أو قريبة منه.

وقد يكون لقول الإمام لمعة من الصواب فى الأمور العلاجية؛ كالأكل والشرب والمشى والقعود، والأمور المحسة كالبيت والحديقة والبحر والجبل وذلك الضرب غثاء لاقيمة له فى عالم البيان، أما المعانى النفسية الكريمة العميقة وما يجول فيها من إحساس مبهم، ووجدان غامض — فذلك هو سر البيان وروح الأدب الخالدة، وأثمن ماسعدت به الإنسانية من تراث؛ وهذا هو المجال الذى تتسابق فيه القوى العقلية، وتتباين الألسنة فى تصويره وتقريبه من الأذهان؛ وهذا النوع هو الذى يجهد العقول ويشقيها فى تلمس الألفاظ التى تلائمه، وإن الكاتب أو الشاعر ليلاقى صورا من هذا الصنف فيطاردها بخيله، وينصب لها شرك قوله، ولا يزال يتنقل فى مناح من القول، بعضها يعلو وبعضها يهبط، حتى يرزق، عفوا أو يدرك قصدا — عبارة يقنع بها راضيا أو كارها، ولقد تغادر المعنى إلى غيره وفى النفس منه بقية لايزال يمسها وتخفق بها جانحته لأنه لم يرزق الألفاظ التى تصيب الهدف.

فكيف يرى الإمام الجرجانى أن الألفاظ تترتب بلا فكر ولاتعب، إذا ترتب المعنى فى النفس؟ الحق، أن هذا القول لم يرزق حظه من التوفيق.

وقد يدور بخلد قارىء أن يقول مابالك قد أثرت خصومة وصلت فى غير مصال، والإمام الجرجانى لم يبخل على اللفظ ببعض مايستحقه فى نظرك؟ فقد اعترف له ببعض محاسنه فيما رويت من قوله ومالم تروه، وكان فى هذا — لو أنصفت — مايحملك عن العدول عن موقف المعارضة للإمام، أو تعديل رأيك فيما يراه للمعنى من حقوق ولايرى مثله للفظ؛ ولقد كان

واجبا على النزول على إرادة ذلك القائل ؛ ومثلى — على ضعفه — حرى أن يرضى بالسلامة والعافية من معارضة الإمام الجليل ، يعسوب البلاغة وإمامها وفيصلها ، وناسج بردها ومهذب ذوقها ، ومقيم صرحها ورافع لوائها ؛ وللإمام فى عنق فضل التهذيب والتأديب ، فقد كان كتابه « دلائل الأعجاز » أول كتاب أدبى نهلت منه الفصاحة صافية ، ونفضت به عن عينى غشاوة الجهالة وحللت به عقدة من لسانى ، وهذبت به كثيرا من ذوقى بعد الفضل الأسمى لكتاب الله الكريم .

لولا أن مدح الإمام للفظ لمعة قليلة جدا لاتكاد تبين فى ثنايا ماأورده فى مدح المعنى ، وقد أطال ووكد وصال وجال فى ميدان المعنى . وندد باللفظ وأنصاره ، ونال منهم فى غير هوادة ، مما لايدع لحسن رأيه فى اللفظ سبيلا إلى القلوب ؛ ويرى الإمام فوق هذا أن كل مدح للفظ قد خصه به أنصاره — هو على الحقيقة مدح مقنع يراد به مدح المعنى ، فاستمع إليه حيث يقول « ولما أقروا هذا فى نفوسهم حملوا كلام العلماء فى كل مانسبوا فيه الفضيلة إلى اللفظ على ظاهره ؛ وأبوا أن ينظروا فى الأوصاف التى أتبعوها نسبتهم الفضيلة إلى اللفظ مثل قولهم : لفظ متمكن غير قلق ولا ناب به موضعه إلى سائر ماذكرناه قبل ، فيعلموا أنهم لم يوجبوا للفظ ما أوجبوه من الفضيلة ، وهم يعنون نطق اللسان وأجراس الحروف ، ولكن جعلوا كالمواضعة فيما بينهم أن يقولوا اللفظ ، وهم يريدون الصورة التى تحدث فى المعنى والخاصة التى حدثت فيه » .

ويقول « كقولهم « لفظ متمكن » يريدون أنه بموافقة معناه لمعنى مايليه كالشىء الحاصل فى مكان صالح يطمئن فيه « ولفظ قلق ناب » يريدون أنه من أجل معناه غير موافق لما يليه كالحاصل فى مكان لايصلح له ، فهو لايستطيع الطمأنينة فيه إلى سائر مايجىء صفة فى صفة اللفظ ، مما يعلم أنه مستعار له من معناه ، وأنهم نحلوه إياه بسبب مضمونه ومؤداه » .

العصفور — بارك الله فى صديق الكريم ، فقد جلا على صورا جميلة من الحقائق ، وأرضانى بحسن أدبه ومعرفته أقدار الرجال ، فجزاه الله عن العلم وأدب النفس خيرا ، وإنى لأرجو أن تتم رأى الإمام فى نظم الكلام بعد أن وقفتنى على رأيه فى اللفظ المفرد ، ولك منى جزيل الشكر والثناء على حسن ماقدمت لى فى يومنا هذا من خير وفير .

أنا — للإمام الجرجانى فى نظم الكلام رأى غريب أيضا يشبه رأيه فى اللفظ المفرد ، فهو يرى أن الكلام الحسن ماجرى نظمه على أصول النحو وقوانينه فحسب ، وإليك رأيه . قال :

« واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التى نهجت ، فلا تزيغ عنها وقال « هذا هو السبيل ، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم — ألا وهو معنى من معانى النحو ، قد أصيب به موضعه ووضع فى حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه . واستعمل فى غير ماينبغى له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه — إلا وأنت تجد رجع تلك الصحة وذلك الفساد ، وتلك المزية وذلك النقل — إلى معانى النحو وأحكامه » .

وهذا الرأى من زعيم البلاغة مثير للدهشة ، فإن أسرار البيان لاتقوم على دعائم النحو ، ولاتتحقق بالجرى على أصوله وقوانينه ، من إقامة الفاعل وبيان المفعول ، وذكر المتعلق وترتيب الثمرة بالفاء ، وبيان الحال وذكر الصفة ونحو ذلك ، مما هو بسبيل النحو ، ولو كان الأمر كذلك لكان أئمة النحو العالمين بأسراره كالخليل وسيبويه ، والفراء والكسائى والأخفش — هم الذين أخذوا بزمام الكتابة والشعر ، وخلفوا وراءهم عبد الحميد وابن المقفع ، وعمر

ابن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، والجاحظ والصابى ، والصاحب بن عباد وابن العميد ، إن السر فى بلاغة الكلام وروعته لا يرجع إلى النحو الذى يعدوسيلة أدبية لتقويم اللسان وصحة الكلام ، بل يرجع إلى ماهو أسمى من النحو منزلة ، يرجع إلى الذوق المصفى المهذب ، والفطرة السليمة النقية الخصبة ، والذخيرة العربية المنوعة التى يتمرس بها الكاتب أو الشاعر طوال حياته ، يتصقل لسانه على غرارها ، وتهب له مثل مافيها من جمال وعذوبة ، وهذا أمر لا ينازع فيه أديب قاسى هذه الصناعة وعرف أسرارها ، ولعل رجال النحو العارفين بأصوله أقل الناس بيانا ، وبيانهم له صيغته الخاصة من التكلف ، وأثر صناعتهم ومصطلحاتها مما لا تطرب له الأذن ولا تشهد له النفس — ولو كان الأمر كما قال الإمام لكان قول القائل الذى يطالب الدعاء لأمه المريضة وهو « صين وأعين من دعا لامرأة مقسئنة عليلة ، قد منيت بأكل هذا الطرموق الخبيث ، أن يمن الله عليها بالاطرغشاس والابرغشاس » — من النظم الحسن ، لأنه جرى على أصول النحو وقوانينه ، وماأظن الأستاذ الإمام يرضى ذلك وهو إمام البلاغة والذوق .

ويؤيدنا فى رأينا العالم النفسى اللبق ابن خلدون ، ويرفض أن تكون قوانين النحو هى المرجع لحسن النظم ، ونورد قوله هنا لإقناع من خامره شك فى صحة ماذهب إليه الإمام الجرجانى — قال فى أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية « والسبب فى ذلك أن صناعة العربية إنما هى معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية لا نفس كيفية ، فليست نفس الملكة ، وإنما هى بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا . . . . . وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة فى نفسها ، فإن العلم بقوانين الإعراب ، إنما هو علم بكيفية العمل ، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة ، والمهرة فى صناعة العربية المحيطين علما بتلك القوانين ، إذا سئل فى كتابة

سطرين إلى أخيه أو ذى مودته ، أو شكوى ظلامة أو قصد من قصوده — أخطأ فيها عن الصواب ، وأكثر من اللحن ، ولم يجد تأليف الكلام لذلك ، والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان العربى ؛ وكذا نجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور ، وهو لا يحسن تمييز الفاعل من المفعول ، ولا المفعول من المجرور ، ولا شيئا من قوانين الصناعة العربية ؛ فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هى غير صناعة العربية ، وأنها مستغنية عنها بالجملة » ويقول أيضا « وهذه الملكة كما تقدم إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تراكيبه ، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية فى ذلك التى استنبطها أهل صناعة اللسان ، فإن هذه القوانين إنما تفيد علما بذلك اللسان ، ولا تفيد حصول الملكة بالفعل فى محلها » .

وهذه شهادة ابن خلدون : فى بيان رجال العلوم ، قال « ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين فى البلاغة ، وما ذلك إلا لما يسبق إلى محفوظهم ويمتلىء به من القوانين العلمية ، والعبارات الفقهية الخارجة عن أسلوب البلاغة ، والنازلة عن الطبقة ، لأن العبارات عن القوانين والعلوم ، لاحظ لها فى البلاغة ، فإذا سبق ذلك المحفوظ إلى الفكر ، وكثر وتلونت به النفس ، جاءت الملكة الناشئة عنه فى غاية القصور ، وانحرفت عباراته عن أساليب العرب فى كلامهم ، وهكذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلىء من حفظ النقى من بحر كلام العرب » . وأرانى قد بلغت الغاية من إيفاء الموضوع حقه ، ولم يبق بعد ذلك ريبة فى أن قول الإمام الجرجانى فى النظم قد خالف الحقيقة وجافى الصواب إلى حد بعيد ، وأعجب ما فى الأمر أن يصدر هذا القول عنه وهو هو فى الفضل والعلم ، وإذا كان ابن خلدون العالم الناقد قد خالفه فى النظم وهو الكل المؤلف من أجزاء هى الألفاظ ، فما أحراه أن يخالفه فى رأيه فى اللفظ المفرد أيضا ، ويذهب مذهب الجاحظ فى اللفظ ، ويجعل المعانى تابعة

للألفاظ ، بعكس ماقال الإمام ، وقد أطال فى الاستدلال وإقامة الحجة، حتى بلغ الغاية فى مهارة وحذق ، ويسرنى أن أسوق إليك قوله فى ذلك ، فهو أبرع وأوفى من رأى الجاحظ ، قال :

« اعلم أن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هى فى الألفاظ لافى المعانى، وإنما المعانى تبع لها وهى أصل . فالصانع الذى يحاول ملكة الكلام فى النظم والنثر إنما يحاولها فى الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ، ليكثر استعماله وجريه على لسانه ، حتى تستقر له الملكة فى لسان مضر، ويتخلص من العجمة التى ربى عليها فى جيله ، ويفرض نفسه مثل وليد نشأ فى جيل العرب ، ويلقن لغتهم كما يلقنها الصبى حتى يصير كأنه واحد منهم فى لسانهم . وذلك أننا قدمنا أن للسان ملكة من الملكات فى النطق ، يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل ، والذى فى اللسان والنطق إنما هو الألفاظ ، وأما المعانى فهى فى الضمائر ، وأيضا فالمعانى موجودة عند كل واحد ، وفى طوع كل فكر منها مايشاء ويرضى ، فلا يحتاج إلى صناعة ، وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه ، وهو بمثابة القوالب للمعانى ، فكما أن الأوانى التى يغترف بها الماء من البحر ، منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف ، والماء واحد فى نفسه ، وتختلف الجودة فى الأوانى المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء - كذلك جودة اللغة وبلاغتها فى الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام فى تأليفه ، باعتبار تطبيقه على المقاصد . والمعانى واحدة فى نفسها ، وإنما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان ، إذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الذى يريد النهوض ولا يستطيعه ، لفقدان القدرة عليه ، والله يعلمكم مالم تكونوا تعلمون »

ومن هنا ترى ياصديقى العصفور ، أن العالم ابن خلدون ، قد خالف الإمام الجرجانى وقلب رأيه رأسا على عقب ، وابن خلدون أيضا رجل كلف باللفظ

يعنى بموسيقيته كثيرا ، وإن لم يبلغ منزلة الجاحظ فى صدق أذنه الموسيقية ، وحسن مرانها على اختيار الألفاظ وترتيبها ، وأنا بلاريب يسرنى أن أكون معتدلا ، فأرى الفضيلة مشتركة بين اللفظ والمعنى ، فإذا شرف اللفظ وصفا وانسجمت موسيقاه ، وواتاه المعنى البارع ، وحسن سبك العبارة ، فاطردت موسيقيتها على أكمل وجوهها ، فقد استويا كلاما بالغاحد الروعة والبهاء ، وباختلاف الشعراء والكتاب فى ذلك قوة وضعفا — تختلف أقدارهم ومنازلهم

العصفور :— حسب الصديق الكريم ماقد سرنى به اليوم من حديث ممتع ، وماأتحفنى به من نقد وتحقيق لنواح كنت أمر بها فى أدبكم الإنسانى ، فيشتبه على الرأى فيها ، فأخرج منها كما جئتها بلا فصل ولا تمحيص للحق منها ، فجزاك الله عنى خير الجزاء ، وأدامك للبحث الخصب نصيرا ، وللخلق السرى ظهيرا ، وإنى لشاكر لله جل شأنه — جمع الشمل وطى صفحة الفراق .

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنان كل الظن ألا تلاقيا

ثم انتفض انتفاضته المعروفة ، ومضى فى الجو صعدا ، وهو يغرد تغريدا أعاد إلى نفسى الذكريات القديمة ، التى طالما جمعتنا على أتم صفاء ، وغمرنى بسرور طربت له كل الطرب ؟

عبد اللطيف المغربى

التربية الإسلامية

معاهـــد التعليم

٣

الأستاذ محمد على مصطفى

المفتش بالمعارف

أجملنا القول فيما بذله السابقون الأولون من الجهود المشكورة فى نشر العلم بين الناس ، وتعليم الأحداث وسواهم القراءة والكتابة ، فعلينا أن نتتبع هذه الحركة مع بعض التفصيل ، لنعرف أماكنها ومداها ، وشيئا عن نظامها فى الأقطار المختلفة .

١ ـ الكتّاب

كان اليهود من العرب قد اتخذوا لأبنائهم مدارس يعلمونهم فيها كتابة اللغة العبرية وقراءتها والتوراة ، فلما جاء الإسلام بكتاب منزل ، كان أول ماعنى به المسلمون تعليم أبنائهم القراءة والكتابة ، حتى يعرفوا دينهم ، ويقرءوا كتاب الله ، وأغلب الظن أن بعض المسلمين بعثوا بأولادهم إلى مدارس اليهود ليتعلموا فيها ، فقد ورد أن أبى بن كعب قال فى زيد بن ثابت لقد قرأت القرآن ، وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود فى

المكتب . وقال الواقدى، كان الكتاب بالعربية فى الأوس والخزرج ، وكان تعلم الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول . وإن كلمة المكتب أو الكتاب لتردد كثيرا على الألسنة، مما يدل على أن الكتاب أو المكتب كان له وجود حتى قبل مجىء الإسلام ، وقد أشرنا من قبل إلى أن رسول الله ﷺ أمر الأسرى من فقراء المشركين أن تكون فديتهم تعليم عشرة من صبيان المدينة ، وليس هناك مايدعو إلى الشك فى أن هؤلاء قد افتدوا أنفسهم بصناعتهم ، وعلموا أبناء المسلمين، فإن آخر الحديث يدل على ذلك إذ يقول: ففشت الكتابة بالمدينة ولعل هذه أول الكتاتيب فى الإسلام . وهناك أمر آخر يدلنا على أن الكتاب نشأ مبكرا، فقد أسلفنا أن سبي قيسارية بلغ نحوا من أربعة آلاف ، استعمل بعضهم فى الكتاب ، كما ضبطها مؤرخو الفرنجة (١) ، وورد أيضا فى الإصابة لابن حجر أن جبير بن حيان وكان معاصرا لعمر بن الخطاب كان معلم كتاب بالطائف، وكذلك كان يوسف الثقفى والد الحجاج وغيره ممن قصصنا عليك أسماءهم من قبل .

كل هذا يدل على أن معاهد تعليم الأطفال نشأت مبكرة، ثم زاد عددها وانتشرت فى الأقاليم الإسلامية بسرعة ، وآزرها الخلفاء والأمراء وأعيان المسلمين بجاههم ومالهم وتقربوا إلى الله برعاية أبناء المسلمين فيها ، حكى غياث ابن أبى شبيب قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا فى الكتاب، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه. وروى أن هاشم بن مسرور التميمى القيروانى من علماء القرن الثالث كان يقف بالمكتب ثم يقول للمؤدب : أخرج إلى من عندك من الأيتام ، فيشترى لهم الفاكهة ويطعمهم ويدهن رءوسهم ويقبل بين أعينهم ويقول: ماعسى أن أصنع لكم ، اللهم هذا الجهد منى ، وحكى أن أمراء بنى الأغلب كانوا يزورون دور

---

(١) راجع دائرة المعارف الاسلامية ج ٤٢

العباد والعلماء والكتاتيب فى المواسم ويوزعون الصدقات .

ومن الخلفاء من اتخذها وسيلة لنشر مذاهب دينيةمعينة، فقد كان المعتصم يقول بخلق القرآن وامتحن الناس فيه ، فكتب إلى البلاد وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك ، وما زالت الكتاتيب ينمو ويتكاثر عددها ، حتى لم يخل منها درب من الدروب أو حى من الأحياء ،وربما تعددت الكتاتيب فى الحارة الواحدة مثلما تعددت المساجد فى الحارات » ، فقد ذكر ابن حوقل أن عدد الكتاتيب فى بليرمو بلغ فى القرن الرابع ثلثمائة،وكان معلموها موضع الاحترام.

والظاهر أن حركة التعليم فى الكتاتيب شملت البنين والبنات ، فقد حكى صاحب البيان والتبيين « أن الوليد بن عبد الملك مر بمعلم صبيان فرأى جارية فقال « ويلك ماهذه الجارية » قال أعلمها القرآن » وأكبر الظن أن ذهاب البنت إلى الكتاب فى ذلك العهد كان غير مألوف ، ألست تحس ذلك فى قول الوليد للمعلم « ويلك ماهذه الجارية » إذ لو كان مألوفا لما كان لهذا الاستفهام بصيغته معنى.

كانت الكتاتيب إما عامة مستقلة عن المساجد أو تابعة لها ،أو للسبل أو خاصة فى دور الأعيان والأمراء وقصور الخلفاء ،ولا يسمح لنا الوقت بتتبع كل نوع من هذه المعاهد مع شىء من التفصيل،فأولى لنا أن نتكلم فى مناهجها وطرق التعليم فيها

مناهج الكتاتيب أو المدارس الأوليه

نشأت التربية متصلة بالمبادىء الدينية،فكان من الطبيعى أن يكون أساس منهجها القرآن الكريم ومعرفة العبادات وطرق إقامة الشعائر الدينية، ولكنها تعدت ذلك إلى تعليم الكتابة والحساب وبعض فنون الأدب ، وشمل المنهج كذلك الرياضة البدنية وبخاصة السباحة وركوب الخيل والوثب على ظهورها روى عن عمر رضي الله عنه أنه قال: « علموا أولادكم العوم والرماية ومروهم

فليثبوا على الخيل وثبا ورووهم مايجمل من الشعر » وكان عبدالملك بن مروان يقول لمؤدب ولده « علمهم العوم وهذبهم بقلة النوم » وروى الأبشيهى فى كتاب المستطرف قال: حكى الفضل بن يزيد الكوفى — وكان من كبار المحدثين وثقاتهم زمن بنى أمية، وكان ينزل بجزيرة الفرات — قال: نزل علينا بنو تغلب وكنت مشغوفا بأخبار العرب، فبينما أنا أدور فى بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها، وهى آخذة بين غلام وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب فاستحسنت مارأيت، واستحليت ماسمعت، فدنوت منها وسلمت فقالت: ياحضرى ماحاجتك ؟ قلت الاستكثار مما سمعت ، فأخذت تقص على من أخبار الغلام حتى قالت : أرضعه حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من فرق المهد إلى فراش أبيه، فربى كأنه شبل أسد، حتى إذا مضت له خمس سنين أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه وأجداده ؛ فلما بلغ مبلغ الرجال حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوتات الحى الخبلاء، وأخذ فى قرى الضيف وإطعام الطعام » .

وأوصى الرشيد خلفا الأحمر مؤدب ولده الأمين فقال له .

يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، وروه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته؛ إلى آخر الوصية (٢) .

وأوصى عمر بن عتبة معلم ولده فقال له :

(١) باختصار عن نزهة القارى. للاسكندرى .

(٢) وخذه بتنظيم مشايخ بنى هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولاتمرن بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده أياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدة

ليكن أول إصلاحك لولدى إصلاحك لنفسك،فإن عيونهم معقودة بعينك فالحسن عندهم ماصنعت،والقبيح عندهم ماتركت : علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيتركوه،ولا تتركهم منه فيهجروه، روهم من الحديث أشرفه ، ومن الشعر أعفه ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام فى القلب مشغلة للفهم، وعلمهم سنن الحكماء،وجنبهم محادثة النساء،ولا تتوكل على عذر منى لك،فقد اتكلت على كفاية منك .

وجاء فى كتاب آثار الأول فى ترتيب الدول لمؤلفه الحسن بن عبد الله ماياتى قال « يتعين على الملك أن يكون له ولد صالح يخلفه فى ملكه ويبقى ذكره من بعده .... ولا ينبغى أن تكون رغبة الملك فى تكثيرهم بل فى تجويدهم،فأول ماينبغى له أن ينتخب الأمهات ذوات الأصالة والصباحة والملاحة،والسلامة فى الأعضاء والحواس وجودة الأخلاق وكرائم الطباع ،وليختر لذلك زمن الربيع وفى الأسحار،وعند السرور والنشاط والانبساط،فإذا جاءه الولد أحسن تسميته واختار له المواضع لتعتدل طباعه وتتكامل هيئته،ثم اذا ترعرع يعلمه الخط والقراءة ويهذب لسانه على الفصاحة ، ويوكل بتربيته من يثق بأمانته وشفقته ، ثم يعلمه الركوب والفروسية والرمى والطعان وجميع مايحتاج إليه أهل العرب » .

وقد تعرض محمد بن سحنون التنوخى القيروانى (٢٠٢ — ٢٥٦ هـ) فى كتابه آداب المعلمين لبيان منهج التعليم الأولى مع كثير من التفصيل المفيد قال:

« وينبغى أن يعلمهم الحساب وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط ذلك عليه،وكذلك الشعر والغريب والعربية والخط وجميع النحو وهو فى ذلك متطوع.

وينبغى له أن يعلمهم إعراب القرآن ، وذلك لازم له ، والشكل والهجاء والخط الحسن والقراءة الحسنة والتوقيف والترتيل يلزمه ذلك ، ولا بأس أن

يعلمهم الشعر مما لايكون فيه فحش من كلام العرب وأخبارها وليس ذلك بواجب عليه » .

مما سقناه إليك من النصوص تعلم علما يقينيا المواد التى اشتمل عليها منهج التعليم فى المرحلة الأولى من مراحله ، على أن الحال لم تكن واحدة فى جميع الأقطار الإسلامية،فقد تفاوتت المناهج واختلفت تبعالاختلاف الأقاليم وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لتعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه فقال:

« اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه فى جميع أمصارهم ، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذى ينبنى عليه مايحصل بعد من الملكات ،وسبب ذلك أن التعليم فى الصغر أشد رسوخا، وهو أصل لما بعده لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للملكات وعلى حسب الأساس وأساليبه يكون حال ماينبغى عليه .

واختلفت طرقهم فى تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ماينشأ عن ذلك التعليم من الملكات .

فأما أهل المغرب فمذهبهم فى الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله ، واختلاف حملة القرآن فيه لايخلطون ذلك بسواه فى شىء من مجالس العلم لامن حديث ولا من فقه ولا من شعر ولامن كلام العرب . . . . فهم لذلك أقوم على رسم القرآن من سواهم .

وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذى يراعونه فى التعليم ، إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم ــ جعلوه أصلا فى التعليم،فلا يقتصرون لذلك عليه فقط ،بل يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية

وحفظها.وتجويد الخط والكتاب .ولاتختص عنايتهم فى التعليم بالقرآن دون هذه ، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ وقد شدا بعض الشيء فى العربية والشعر والبصر بهما،وبرز فى الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم،لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم فى آفاقهم ، ولايحصل بأيديهم إلا ماحصل من ذلك التعليم الأول،وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد إذا وجد المعلم .

وأما أهل إفريقية فيخلطون فى تعليمهم للولدان القرآن بالحديث فى الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها،إلا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه وعنايتهم بالخط تبع لذلك . . . .

وأما أهل المشرق فيخلطون فى تعليمهم كذلك على مايبلغنا ولا أدرى بم عنايتهم منها، والذى ينقل لنا أن عنايتهم بالقرآن وصحف العلم وقوانينه فى زمن الشبيبة،ولايخلطون بتعليم الخط، بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد .

ينتقل ابن خلدون بعد هذا إلى المفاضلة بين هذه الطرق المختلفة فى الأمصار الإسلامية،ويذكر مايترتب على اتباع كل طريقة من النتائج، والظاهر أنه يفضل طريقة أهل الأندلس على سواها،لأن اتباعهم هذه الطريقة أفادهم من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف فى اللسان العربى،وقصروا فى سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذى هو أصل العلوم وأساسها ، فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع ، أو مقصر على حسب مايكون التعليم الثانى من بعد تعليم الصبا »

محمد علي مصطفى

من الشعراء المنسيين

السيد الحميرى

للأستاذ عبد العظيم على قناوى

شاعر مطبوع لا يبلغ شأوه في فنه ، ولا يجاريه سواه في ذلك اللون من شعره الذى تفرغ له ، فانفرد به ، بعد أن منحه همامة نفسه ، وأولاه عصارة ذهنه ، وما زال ذلك شأنه لا يعدو هذا الغرض إلى غيره من الأغراض إلا لماما ؛ حتى قوض بناؤه ، وسالت دماؤه . وإذ ذاك كفر حقه الرواة ؛ وجحد فضله المؤرخون ، فصار بعد حين من موته مغمورا ، إن عرفته بطون الأسفار نكرته صحائف الأفكار ، وإن رمقته عيون الأخبار قلته أحداق الأبصار ، فنال الدهر من ذلك الشعر الذى طالما نيل به من السابقين الأولين ، فلقد كان السيد متشيعا تشيعا مقيتا لا يقره دين ، ولا ترمقه بالرضا عين ، وما كان يبالى فى سبيل الذود عن نزعته أن يخرج على أدب الإسلام أو يقع فى الآثام والأوزار ، ولعله ورث سلاطة اللسان وخبث النفس عن جده يزيد بن زياد ابن ربيعة الحميرى، فقد كان لسانه مفحشا وهجاؤه مقذعا ؛ هجا آل زياد بن أبى سفيان فلم يترك لهم أديما ولم يبال فى ذمهم تأثما من أدب قويم أو دين كريم؛ حتى استأذن عبيد الله بن زياد يزيد بن معاوية فى إهدار دمه ، ليكون عبرة غيره من أولئك الهجائين المجادعين الذين أباحوا الحرمات فاستحقوا اللعنات ولكن يزيد أبى عليه هذا، وأباح له التنكيل به كيفما شاء ، ففر يزيد الحميرى من وجهه مستجيرا بكل عظيم ، ، فكانوا يردونه رداً حسنا اتقاء لسانه وخشية سبابه ؛ زاعمين له أنهم لا يمنعهم حمايته إلا أمر الخليفة ، فما كان لهم أن يجيروا على

سلطان ، وهو فى تطرافه وجرلاته لا ينفك يهجو ويقذع ، فلم يسلك مسلك
نابغة قبله فيعتذر ويرتجى ، ويستجير ويستعفى ، حتى يجد فى قلب عبيد الله
رحمة .

وبعد حين أمكنت الفرصة عبيد الله منه فقبض عليه وسقاه من صابه ،
وأطال فى الحبس مقامه ، حتى استشفع له قومه من اليمانية فشفع له ، ومن
هجائه له ولأخيه عباد قوله :

وما لاقيت من أيام وبؤس ولا أمر يضيق به ذراعى
ولم تك شيمتى عجزا ولؤما ولم أك بالمضلل فى المتاع
سوى يوم الهجين ومن يصاحب لئام الناس يغض على القذاع

ومنها :

إذا أودى معاوية بن حرب فبشر شعب قعبك بانصداع
فأشهد أن أمك لم تباشر أبا سفيان واضعة القناع
ولكن كان أمر فيه لبس على عجل شديد وارتياع

ولا سبيل لنا إلى رواية الشىء الكثير من شعره لأننا بصدد حفيده أولا ،
ولمغالاته وإمعانه فى السفه ثانيا ، ولكنا نحكم عليه عادلين فى حكومتنا
أنه أول أولئك الذين شرعوا ذلك المشرع الكدر من الشعر ، فدفعوا بغيرهم
فى تلك المفازة الموحشة من الأدب ؛ بذكر ألفاظ الخنا والزنا ، ورمى المحصنات
المنكرات ، وقذف الأمهات والأخوات ، فى عهد قريب من عصر الأدب
الرفيع أدب الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام المبعوث ليتمم مكارم
الأخلاق ، فجناية هذا الشاعر ومن نحا نحوه مزدوجة ، وجريمته ومن شايعه فى
نحلته مضاعفة .

أورث يزيد بن زياد حفيده إسماعيل بن محمد ذلك الأدب الفاحش واللسان
المستهتر بالسباب . والقلب السادر فى الغى ، فكان ينضح من معينه . ويفيض إناؤه

بسخينة، وليته أطلق مقوله على لداته من الشعراء والمنافسين أو أرسل إفحاشه على الأعداء من المجادعين، إذا لكانت الجريرة محتملة الوقع، هينة الإيلام للنفس، ولكنه تطاول على الخيرة الأبرار، ولم يجد من يردعه، وتسامى إلى البررة الأطهار ولم يلق من يرجمه، إذ كان يتقرب إلى الخلفاء والولاة فيمالئونه ويدارونه، ويتمدح بخلال الأمراء والأعوان فيصافونه ويتجاملونه.

ولقد كان تشيع السيد الحميرى عن عقيدة فى النفس راسخة لا تلعب بها الزعازع، وكان تحز به لآل على عن إيمان لا تنال منه الأعاصير الهوج، فلو أن التشيع عن هوى لخشى ماقد يصيبه من جنف، ولبالى مالعله ينتظره من حيف ولكنه لم يأبه فى حبه ظلما، ولا بالى فى تحز به صنيما، فهذا أبوه كان إباضيا [1] فحين بلغته نحلة ابنه ثار وفار وهم بقتله لولا أن أنقذه منه أحد ولاة المنصور، فلما مات أبواه ورث عنهما دارهما التى طرداه منها فى حياتهما، فلم يبك عليهما وإنما بكى فعليهما، فكان يقول فى حسرة وأسى «طالما سب أمير المؤمنين فى هذه الغرفة» وبقى طوال عمره مدافعا عن تشيعه منافحا دون تحز به حتى جل شعره الشيعى عن الإحصاء، فكان شعره هو حديثه وسمره، سئل مرة من أين وقع له التشيع؟ فقال «غاصت على الرحمة غوصا» ثم أنشد بعد ذلك شعراً.

حدث أحد رواة الشعر قال: «جمعت للسيد فى بنى هاشم ألفين وثلثمائة قصيدة، فخلت أن قد استوعبت شعره حتى جلس إلى يوما رجل ذو أطمار رثة

---

(١) الاباضية إحدى طوائف الملحدين الزائغة عن الهدى، خرجو على مروان بن محمد آخر خلفاء الامويين وزعموا أن مخالفيهم من الملحدين كافرون، ولكنهم يجيزون الاصهار اليهم والارث عنهم. وأموال المسلمين حرام فى السلم حلال فى الحرب

فسمعني أنشد شيئا من شعره ، فأنشدني له ثلاث قصائد لم تكن عندي . فقلت في نفسي لو كان هذا يعلم ماعندي كله ، ثم أنشدني بعده ماليس عندي لكان عجيبا فكيف وهو لا يعلم : وإنما ينشد ماحضره وعرفت حينئذ أن شعره ليس مما يدرك ولا يمكن جمعه كله »

ولقد زعم عنه بعض عداته وهم كثر — أنه تحول عن مذهب الكيسانية[١] في أخريات حياته إلى مذهب الجعفرية[٢] واستدل على ذلك بأبيات إليه منها:

أيا راكبا نحو المدينة جسرة عذا فرة تهوى بها كل سبسب
إذا ماهداك الله لاقيت جعفرا فقل ياأمين الله وابن المهذب

وهذا زعم واهي الأساس منهار الأركان ، لأننا لانعرف له تحولا في غير مذهبه الذي خالط لحمه ودمه حتى يتحول عنه ، ولو كان من اليسير انتقاله من نحلة إلى نحلة — لخضع لأبيه عند محاولته قسره على اعتناق مذهب الإباضية ، ولأنه لم يجد من الأسباب الحافزة مايدعوه إلى ترك رأيه القديم إذ يستوى لدى الخلفاء الذين ترهب إرادتهم المذهبان . ولعلهم كانوا أكثر خشية لمذهب الجعفرية منهم لمذهب الكيسانية ، هذا إلى أن راويتى شعر السيد أنكرا ذلك وجحداه

قال أبو داود سليمان بن سفيان المعروف بالخنزق وقد سئل عن هذا :

« مامضى والله إلا على مذهب الكيسانية ، وما ورد دليلا على تحوله منحول عليه منسوب له وهو منه برىء » وحدث راويته الثانى إسماعيل بن الساحر وقد نقل إليه بعد وفاة السيد أنه رجع عن مذهبه في ابن الحنفية وقال

---

(١) الكيسانية فرقة من شيعة المسلمين زعيمها المختار بن أبي عبد الله الثقفي الذي ثأر للحسين رضي الله عنه ، أخذ مذهبه عن كيسان مولى أمير المؤمنين علي رضي الله عنهما ، وقوام مذهبه أمران : إمامة محمد بن الحنفية ، وجواز البداء على الله عز وجل . ولها آراء لايسيغها رأى ، فيزعمون ابن الحنفية حيا في جبل رضوى ، ولديه عينا ماء وعسل ينال منهما رزقه . وهو في حراسة النمار ويبقى حيث هو حتى يخرج لهداية الناس ، فهو المهدى المنتظر ، وفي شعر السيد بعض هذا (٢) نسبة إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم قال اكثر الشيعة بامامته ولكنهم اختلفوا في خلفه .

بإمامة جعفر بن محمد » والله مارجع عن ذلك ولا القصائد الجعفريات إلا منحولة قيلت بعده ، وآخر عهدى به قبل موته بثلاث وقد سمع رجلا يروى عن النبي ﷺ أنه قال لعلى عليه السلام « إنه سيولد لك بعدى ولد وقد نحلته اسمى وكنيتى ، فقال فى ذلك وهى آخر قصيدة قالها :

أشاقتك المنازل بعد هند وتربيها وذات الدل وعد
منازل أقفرت منهن محت منازلهن من سيل ورعد
وريح حرجف تستن فيها بسافى الترب تلحم ماتسدى
ألم يبلغك والأنباء تنمى مقـــال محمد فيما يؤدى
إلى ذى علمه الهادى على وخولة خادم فى البيت تردى
ألم تر أن خولة سوف تأتى بوارى الزند، صافى الخيم، نجد؟
يفوز بكنيتى واسمى لأنى نحلتهما والمهدى بعدى

ثم يشرح عقيب ذلك مذهب الكيسانية شرحا مستفيضا فى نسج مصقول وأسلوب سهل ، فكأنه خطيب يبين للناس تعاليمه ، ويفصل مبادئه ، ويتحدث عن آرائه، وهمه أن يكسب ثقة سامعيه وينال رضا حاضريه ، فيكاد يلم بصغيرات عقائدهم كأن يقول :

يطيب عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين وأشهرا ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعـــين وحفان تروح خلال ربد

وإنى إن شككت فى نسبة القصيدة إلى السيد — فثقتى لا يعتورها شك فى أن هذا الحديث جملة وتفصيلا من وضع الشيعة لأسباب منها : أن السيد لم يترك كبيرة ولا صغيرة من أخبار أبى تراب إلا عرفها، حتى لقد روهن فى هذا فنال الرهان ، ولا يمكن أن ينتحل مذهبا لا يعرف تفاصيل سيرة صاحبه ، كما أن الرسول الكريم يتحدث عنه القرآن بقوله « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت

من الخير » فأنى له العلم أن عليا سيرزق ابنا إلا إذاجاء ذلك على سبيل الأمنية التي يرجى تحققها ، وما هذا الذى يدعيه السيد فاجرا فى دعواد ؟ إذ يرى أن هذا الذى نسب إلى رسول الله من التبشير بابن الحنفية بعض ما يجب على النبى الصادق الكريم أداؤه إذ يقول (مقال محمد فيما يؤدى) ؟

ومما يروى عن السيد فى سبيل الاستدال على إحاطته بحياة أمير المؤمنين على كرم الله وجهه — أنه راهن جماعة من أهل الكوفة على فرس له إذا ذكروا فضيلة لأمير المؤمنين لم ينشد فيها شعرا ، فصاروا يحدثونه فينشدهم حتى جاءه رجل منهم وقال : إن أمير المؤمنين عزم على الركوب فلبس ثيابه وأراد لبس الخفين فلبس أحدهما ثم أهوى إلى الآخر ليأخذه ؛ فانقض عقاب من السماء فحلق به ثم ألقاه ، فسقط منه أسود وانساب فدخل جحرا فلبس على رضى الله عنه الخف وما كان السيد فى حقيقة أمره،قال فى هذا الحادث شعرا ولعل له فى فى ذلك عذرا سنبينه بعد ، ولكنه أنشد دون ريث ولا توقف :

ألا ياقوم للعجب العجاب لخف أبى الحسين وللحباب
أتى خفاله وانساب فيه لينهش رجله منه بناب
فخر من السماء له عقاب من العقبان أو شبه العقاب
فطار به فحلق ثم أهوى به الأرض من دون السحاب
إلى جحر له فانساب فيه بعيد القعر لم يرتج بباب

إلى آخر القصيدة ثم حرك جواده مزهوا معجبا ، وجعل للقصيدة بعد ذلك مطلعا هو :

صبوت إلى سليمى والرباب وما لأخى المشيب ولا التصابى ؟

وما عليه لو أنه جرى فى مطلعه على غير سنن شعراء ذلك العصر من الصبوة بالغيد والتحسر على الشباب الوئيد، ولا سيما أنه وفق فى مطلعه المرتجل إذ نبه إلى الصغى لذلك النبأ العجاب،يسقط العقاب على الحباب ، ومما يستوقفنى فى تلك القصيدة قوله :

فخر من السماء له عقـــاب من العقبان أو شبه العقاب

إنه يريد أن يزعم أن هذا الساقط من السماء ليس عقابا حقا، وإنما هو ملك جاء على صورته وشبهه ، وأؤكد أنه يقصد ذلك وليس ذلك عليه بعزيز ، ولعل هناك من يحسن به الظن بعض الإحسان من ناحيته الدينية . فيرى أن استعصاء القافية هو الذى دفعه إلى هذه الشبهة ، وهو إذ يجهل تلك الواقعة معذور غير معذول ، فقد رويت عن رسول الله ﷺ ، وسواء أكان وقوعها لرسول الله أم لعلى . أم أنها موضوعة عليهما وهو ما يملأ نفسى ، فالقصة فى ذاتها دليل قوى على سرعة بديهته ، وتوقد قريحته ، وتدفق شاعريته

شغل السيد بهذا النوع من الشعر القصصى ، وبمدح ممزوج بالهجاء ، أو بهجاء مختلط بالمدح، عن بقية أغراض الشعر فى ذلك العصر ، ولولا غزل يقدمه بين غرضيه شأن شعراء عصره — لقلت إنه لم يشارك فى غيرهما من الفنون ، ولو قد فعل لكان له بين الشعراء على الرغم من عداته وحساده الأثر القوى المبـين ، ولـكن منزلته مع تقصيره وقصوره كانت مكينة ، وخطوته لدى أهل السلطان كريمة ، إما لرضاهم عنه وحدبهم عليه ، فهو لسانهم الجرىء ومقولهم الصوال ، وظهيرهم الجوال ، ينافح ويكافح ويصاول ويجادل فى قوة وصرامة ، وعنف وكرامة ، وإما لمداراتهم له ، وخشيتهم شره واتقائهم هجره ، فمن لم يسلم من عقرة لسانه أجلاء الصحابة وفضليات أمهات المسلمين — لا يعبأ من لا مقام له إلى جنب أولئك السادة الغر الميامين من صحابة الرسول يسرقهم بلسان صارم ويرزؤهم بشعر حاسم ؟ لذلك نلقى أحاديث شتى إن دلت على شىء فعلى ملق الناس له ، ومداهنتهم إياه، يستوى فى ذلك أحباؤه وأعداؤه اللهم إلا المتزمتين من الفقهاء والمتأثمين من الأتقياء ممن خشى الله خشية أنسته نفسه ، وخاف به خوفا ملك عليه حسه ، وهم قل منهم سوار بن عبد الله التميمى القاضى العادل، ومن يدرى ؟ فلعله لو عرف أن سيصيبه من إشهار أعدائه للسيد ما أصابه

لـكان بعرضه من الناجين ، ولما عرض درعه للسانه ينال منه ، وعدله لشعره يعبث به ، ونسبه لتهكمه يتندر عليه ، ولـكنه كان طيب السريرة فجنت عليـه طيبته ، حسن السيرة فأساء السيد لدى الناس سيرته

دعى السيد إلى شهادة بين يدى ذلك القاضى فاستعفى داعيه فلم يعفه ، فبذل له المال استخلاصا لنفسه من الشهادة بين يدى من لا يثق بدينه فأباه ، وأصر على أن يؤدى الشهادة التى من يكتمها فإنه آثم قلبه ، فتقدم إلى سوار وجلا ، وشهد فقال له : ألست الحميرى ؟ قال بلى : قال القاضى : استغفر الله من ذنب تجرأت به على الشهادة عندى ، قم لا أرضى بك ، فقام من مجلسه محنقا ؛ إذ قد نال منه أى نيل دون أن يجترح إثما أو يجترم جرما ، وليس هو بالحصر العيي الذى يخنع لمساءة ، أو يرضى بعدوان ، ولا هو بالحليم الذى يغض عن سفاهة السفيه ، فكيف به يغض عن كلمة مصمية تصدر عن قاض لـكلمتـه أعظم الأثر فى النفوس ؟ لقد سعى به فى شعره لدى المنصور — وهو عنده العزيز الأثير ـ دعا له ، ووصفه بالهدى والطاعة ، وبأنه يقود أمته إلى النجاة يوم العرض ثم نصحه بألا يستعين بسوار ، فهو رجل خبيث الرأى ظاهر الصلف ، كثير النقص ، عظيم البطش ، وما هذه بصفات قاض يوكل إليـه الفصل فى قضايا المتقاضين ، وفيهم الضعيف لا يستطيع أن يرفع لديه طرفا ، والجبان لا يمكنه أن يقيم حجة أو ينطق حرفا ، على أنه لا يجدر بالقضاء ولا يستأهل هـذه الصنيعة فهو ناشىء فى الصنعة ، وهذا بعض ما قال فيـــه يخاطب أولاد المنصور .

قل للإمام الذى ينجى بطاعته يوم القيامة من بحبوحة النار
لا تستعين «جزاك الله صالحة» «ياخير من دب» فى حكم بسوار
لا تستعين بخبيث الرأى ذى صلف جم العيوب عظيم الـكبر جبار

تضحى الخصوم لديه من تجبره ... لا يرفعون لديه لحظ أبصار
تيها وكبرا ولو ما رفعت له ... من طبعه كان دون الجائع العارى

وكأنى بالقاضى الورع يهرول إلى الخليفة محنقا مغيظا، يستعديه على ذلك الفاجر الداعر، ينال من قاضى المسلمين ويذم على أمير المؤمنين ، ولا يرضى دون حد القذف لذلك القاذف جزاء ، فيبتسم له المنصور حيث كان ينتظر أن يريد ، ويهش إذ هو يتوقع العبوس ، فيعرف أن شكواه لم تصل إلى قلب الخليفة إن كانت قد وصلت إلى أذنه ، وقد كان ذلك حقا فإن المنصور قال له : أما بلغك خبر إياس بن معاوية (١) حيث قبل شهادة الفرزدق واستزاد من الشهود ، فما أحرجك للتعرض للسيد ولسانه، ومن حقه حينذاك أن يرتب على كتفه مسترضيا بينا هو ينحى باللائمة عليه ، ويصفه بقلة الحنكة وعدم الدربة والقضاء يعوزه الحازم العازم والصارم العارم ، كما يعوزه كذلك الهين اللين الحول القلب ، وكأنى بالمنصور أقر السيد على شعره وأن صلف سوار وتيهه واعتزازه بمكانته من الخليفة هو الذى حمله على عدم المداراة ، وربما كانت قلة كياسته وسياسته هى التى عرضته لما نزل به ، ولو أنه تصرف تصرف إياس لأرضى العدالة ؛ ولنجا بالكياسة ، ولقد كان المنصور مع هذا الذى قال يؤثر سوارا بحبه ، ويمنحه أوفى قسط من تقديره ، فهو الوحيد الذى جمع بين الولاية والقضاء ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يؤيد حجة السيد عليه، بل قدح فيه حينما مدح القصور بقصيدة منها :

إن الإله الذى لاشىء يشبهه ... أعطاكم الملك للدنيا وللدين
أعطاكم الله ملكا لا زوال له ... حتى يقاد إليكم صاحب الصين
وصاحب الهند مأخوذا برمته ... وصاحب الترك محبوسا على هون

(١) إياس بن معاوية قوة المزنى البصرى كان نادرة فى الفطنه والذكاء حسن التصرف بارع التخلص صادق الفراسة ، رائع الكياسة تولى قضاء البصر فى عهد أمير المؤمنين عمــر بن عبد العزيز وتوفى سنة ١٢٢ هـ

والمنصور متهلل جذلان ، ويلتفت إلى سوار بغتة وهو يعتقد أن فى مثل تهلله ، فإذا به مربد غيظا . فقال له مالك ؟ أرابك أمر ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين: هذا الرجل يعطيك من لسانه ماليس فى قلبه ، وإن الذين يواليهم لغيركم ، فقال المنصور مهلا : هذا شاعرنا وولينا ، وما عرفت منه إلا صدق محبة ، وإخلاص نية ، وأتيح الكلام للسيد ورأى السكوت فى مثل هذا الموقف حصرا وعيا فقال : يا أمير المؤمنين ،والله ماتحملت غضكم لأحد ، وما وجدت أبوى عليه فافتتنت بهما ، وما زلت مشهورا بموالاتكم فى أيام عدوكم . فقال المنصور صدقت ، فاسترسل قائلا : ولكن هذا وأهله أعداء الله ورسوله قديما ، والذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ، فنزل فيهم قوله تعالى « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » ولم ير أن يقف عند هذا بل قال فى ذمة من قصيدة « مدح بها المنصور » ما كان سوار عنه فى غنية تنقص فيها حسبه ونسبه،وطعن فى ولائه وإخلاصه ومنها :

يا أمين الله يا منصـــور يا خير الولاة
إن سوار بن عبد الله من شر القضاة
نعثلى جمـــلى لـكم غير موات
جده سارق عنز فجرة من فجرات
لرسول الله والقا ذفه بالمنكرات
وابن من كان ينادى من وراء الحجرات
مدحنا المدح ومن نر م يصب بالزفرات
فاكفنيه لا كفاه الله من شر الطارقات

ولعل القصيدة أكثر إقذاعا من هذا الذى روى ، ولكن تأثم الرواة دفعهم إلى أغفاله،فلقد شكا سوار السيد إلى المنصور فأمره أن يعتذر إليه فهو

قاضى المسلمين وفيصل الدين القويم ، ولكن سوارا عاوده الخطأ فرفض المعذرة فأنشد فيه :

أتيت دعى بنى العنبر أروم اعتذارا فلم أعذر
فقلت لنفسى وعاتبتها على اللوم فى فعلها أقصرى
أيعتذر الحر مما أتى إلى رجل من بنى العنبر ؟
أبوك ابن سارق عنز النبى م وأمك بنت أبى جحدر
ونحن على رغمك الرافضو ن لأهل الضلالة والمنكر

وإن لمن الظريف فى هذه الأبيات قوله

أيعتذر الحر مما أتى إلى رجل من بنى العنبر

فكأنى بالسيد يخشى اتهامه بالرق ويرمى به الناس قبل أن يرميه به أحد فلقد كان أسود البشرة فيه كل صفات الأرقاء وسمات العبيد، حتى لقد تحدث هو عن ذلك فى شعره فقال يمازح زنجيا

أعارك يوم بعناه رباح مشافره وأنفك ذا القبيحا ؟
وكانت حصتى إبطى منها ولونا حالكا أمسى فضوحا
فهل لك فى مبادلتك إبطى بأنفك تحمد البيع الربيحا؟

ولقد صدق من قال فى مثل السيد « رمتنى بدائها وانسلت » ويروى الرواة أن سوارا وقد ضاق بذلك « الحر » ذرعا ، ولم يعرف له من التخلص منه وزرا ؛ إذ شكاه إلى الخليفة فلم يسمح منه سوى اتهامه فى حكمته ، وأعاد الشكاة إليه فأنبه فى رفق ، وليس له بمساجلته السباب قدرة ، وهو كل يوم يأتيه من فحشه بجديد ؛ يرون أنه دبر مكيدة لقطع يديه منهما بالسرقة ، وأعد الشهود لإثبات التهمة ، فبلغت المكيدة السيد، فأبلغها المنصور ، فدعا سوارا . ورده عن الحكم للسيد أو عليه .

إنى أستبعد تلك الرواية بل أستنكرها، لأن سوارا قاض عرف بالنزاهة

فى الفعل والتأثم فى القول ، ومن يرفض شهادة شاهد لأنه لا يثق به دون أن يقيم الحجة على كذبه، لا يفتعل الزور ولا يدفع الناس إلى الوزر . وراوى ذلك الخبر صاحب الأغانى، وجدير به أن ينصف منصفى عثمان، فقد كان عثمانيا كسوار، وليس من إنصافه فى شىء اتهامه بتدبير المكائد ونصب الحبائل

ولندع سوارا وما نكبه به السيد من هجاء وبذاء غير جديرين برجل ثبت وقاض عدل . وإمام حجة ، ولنعرض لآراء الشعراء والرواة لمنزلته فى الشعر فحكمهم له أو عليه حكم الخبير البصير ، وسنترك من نعتقد أنه فى حكمه متحيف عليه، أو متحيز له، فما أحوجنا إليهما قلة حكام ، أو ضعف أحكام .

ذكر أحد الرواة أنه خرج إلى بادية البصرة فأنس به أهلها ، واستنشدوه فأنشدهم لذى الرمة وجرير والفرزدق فعرفوهم دون تعريف، ثم أنشدهم للسيد :

أتعرف رسما بالسويين قد دثر عفته أهاضيب السحائب والمطر؟
وجرت به الأذيال ريحان خلفة صبا ، ودبور بالعشيات والبكر
منازل قد كانت تكون بجوها هضيم الحشا ريا الشوى سحرها النظر
قطوف الخطا خمصانة بخترية كأن محياها سنا دارة القمر
رمتنى ببعد بعد قرب بها النوى فبانت ولما أقض من عبدة الوطر
ولما رأتنى خشية البين موجعا أكفكف منى أدمعا فيضها درر
أشارت بأطراف إلى ودمعها كنظم جمان خانة السلك فانتثر
وقد كنت مما أحدث البين حاذرا فلم يغن عنى منه خوفى والحذر

فجعل البداة يمرقون لإنشادى ويطربون ، وسألوا عن الشاعر فأعلمهم ، فقالوا هو والله أحد المطبوعين . لا والله ما بقى فى هذا الزمان مثله .

وإن شاعرا يسمع هذا الشعر العذب ، والقصص السهل ، واللفظ الجزل ليعتقد أن منبعه ذلك المعين الغزلى، معين عمر بن أبى ربيعة ،فهو بشعره أشبه ، فلو أن السيد شارك فى جميع فنون الشعر لأتى بالعجب العجاب ، ولأسقانا

النطف العذاب، ولبذ لداته، وقهر عداته، ولقد حمد الشعراء ربهم أن ترك لهم أغراضهم.

روى عن الفرزدق أنه قال: إن هاهنا لرجلين لو أخذا فى معنى الناس لما كنا معهما فى شىء، فسئل عنهما فقال: السيد الحميرى وعمران بن حطان السدوسى، ولكن الله عز وجل قد شغل كل واحد منهما بالقول فى مذهبه.

وهذا بشار زعيم المحدثين وإمام المولدين، يشهد للسيد شهادة الرجل العظيم لا ينكر على غيره عظمته، لأن سناءه وشرفه يمنعانه أن يبخس الناس أشياءهم، فقد وقف السيد على بشار وهو ينشد مادحا فأقبل عليه وقال له:

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج نفع المنزل العواد
لا تقل فى الجواد ماليس فيه ... وتسمى البخيل باسم الجواد

فسأل بشار عنه فقيل له، هذا السيد الحميرى فقال: لولا أن هذا الرجل قد شغل عنا بمدح بنى هاشم لشغلنا، ولو شاركنا فى مذهبنا لأتعبنا.

تلك شهادة الشعراء فيه، يحمدون الله أن صرفه عن مجاراتهم فى بحورهم ومساجلتهم فى فنونهم، أما الرواة فقد كانوا عليه قساة مبغضين، يقلونه جهارا ويستطيبون قوله إسرارا؛ رأى الأصمعى جزءا من شعر السيد فسأله عنه فستردونه لكراهيته إياه، فأقسم على من معه الشعر أن يخبره حقيقة الشعر والشاعر، فأخبره فاستنشده قصيدة وقصيدة وثالثة ورابعة وهو يستزيده ثم قال: قبحه الله ما أسلكه لطريق الفحول. لولا مذهبه ولولا مافى شعره ماقدمت عليه أحدا من طبقته.

وروى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى وحكمه لا يقل عدالة وإنصافا عن حكم الأصمعى؛ وعلمه بلسان العرب علم ذى البصر والبصيرة، روى عنه أن صديقا زاره وعنده أحد بنى هاشم يقرأ عليه كتابا فلما رآه أطبقه، فقال له

أبو عبيدة،اقرأ فإن صاحبنا ليس ممن يحتشم منه ، فأخذ يقرأ فإذا هو شعر السيد،وأبو عبيدة معجب به مستحسن له ثم قال : « السيد الحميرى وبشار بن برد أشعر المحدثين » .

وشهادة هذين فصل الخطاب ؛ فقد اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرهما حدة ذهن ، وحديد بصر ، وسعة علم ، وصحة حكم ، فإذا حكما لشاعر أو عليه فلا معقب لحكمهما ولا راد لقضائهما ، ولا سيما إذا كان المحكوم له ممن أبغضه العامة ، وقلاه أكثر الخاصة ، فليهنأ السيد بحكمهما الخالد .

وإنى لأرجو أن أكون قد عرضت حياة ذلك الشاعر وشعره عرضا يرضى الأدب ويسعد الأديب، كما يرضى الوَرع ويسعد الورِع ، فإن أكن قد نلت ما أردت فلله الحمد ، وإن أكن قد قصرت فلى من الأدباء الغفر ، ولى من السيد على كل حال الشكر،فقد أحييت سيرته،وأشدت بشاعريته بعد أن طوى عبقريته النسيان .

عبد العظيم على قناوى

السرُّ الغريق ...

أو

فتاة نهـــر السين

للأستاذ محمد عبد الغني حسن

عثروا في نهر السين من أعوام قليلة على جثة فتاة ، وعلى شفتيها ابتسامة حزينة . . ولم يستطع المحققون أن يكشفوا سر غرق الفتاة ، فطواها النهر وطوى معها سرها .

وقد امتلأت معارض الصور والفنون في باريس وميونخ بألمانيا بصورة هذه الفتاة ، وصنعوا لها هناك تماثيل صغيرة ، كانت تباع في كل مكان ، وسموها « المرأة المجهولة ».

ووحي هذه القصيدة هو صورة جميلة من مدينة « ميونخ » تذكر الشاعر دائما بفلسفة الحياة والموت.

ماذا رمى بكِ في بطون المــاء ... ومحا معالمَ وجهكِ الوضَّاء؟
عقد الكرى في ناظريك سكونَه ... فارتحتِ من نَصَب ومن ضوضاء
نور الحياة — كما علمتِ — خديعةٌ ... فتمتعي في (السين) بالظَّلْماء ...
ما هذه الدنيا وما وَمَضاتُها ... ألا مخايلُ خـــدعة ومرائي
شفتاك تبتسمان عن سخرِيَّة ... عيناك تغتمضان عن إغضاء ...
تلك الحياةُ — وما أشد همومَها — ... هصرتكِ هصرَ العُودِ في الأنواء
السرُّ في شفتيك مضمومٌ على ... جُرح ومطوىٌ على أدواء
وأكادُ ألمحُ في جبينك طابعاً ... وَسَمته قاسيةً يَدُ الضراء
وأراكِ من حيثُ التفتُّ مرائياً ... مجهولةَ المعنى لعين الرائي
وذهبت فيك من الظنون مذاهبا ... والظنُّ أقصى غاية الحكماء
وأرى على شفتيكِ كِبْراً أن تُرى ... بهما ملامحَ ذلة وشقاء
غطَّيتِ من خلف ابتسامك قصةً ... ماذا يُفيـــدك ستُرها بغطاء
حيَّرتِ فيكِ الضارِبين بظنهم ... وتركتِهم في حيرة عميـــاء

وَأثرت حولك للشكوك نواحيا وأطلت حولك ألسن الجهلاء

من لى بكشَّافِ الغيوبِ كشيفةً ليذيع ما أخفيتِ من أنباء ؟؟؟

حار الفضوليون فيكِ وأمعنوا فى الحدْسِ والتخمين والآراء

وافتنَّ فيكِ المسرفون بظنهم ورَموكِ من جهل بهم وغباء

وتأولوا فيكِ الحديثَ مذاهبا من غير ماخجل ولا استحياء

هلاَّ شفيتِ بهم لواعج صدرهم وأزحت عنك ستارة الإخفاء ؟ ؟

يانهر صُنتَ على الليالى سرَّها وحفظتَ قصتها من الإفشاء

ووعيتَ فيك ـ وأنت أوفى مُودَع ـ أغلى الضيوف وأكرمَ النزلاء

غُصْنٌ ثناه الموتُ فى ريعانه وطواه وهْو يرفُّ فى الأنداء

ماكاد يشرق للشباب وصُبْحه اللمَّاح حتى غاب فى الإمساء

يانهــر فى أطواء مَوجكَ سيرة قد لفَّها المجهول فى الأحشاء

وَجدَتْ بصدركَ راحةً فى صدرها ورأتْ بمائك غاسلا للداء

والموتُ فيه من الحياة سلامةٌ وشفاءَ من عاشوا بغير شفاء

خطَّ الجمالُ على جبينك مسحةً بقيت برغم تقلُّص الأعضاء

أعيا على الزمن المُغيِّرِ مسخُها إن الزمان مُشوهُ الأحياء

فيها بقايا من جمال عابر وأثارةٌ من فتنة ورواء

عَجَّلْتِ فى الدنيا نواكِ وربما كانت أمانى العيش فى الإبطاء

فى الموت يا أختاه راحةُ يائسٍ يَقْضى الحياةَ موكَّلاً بعناء

إن الحياة على اختلاف جديدها دارُ الضيوف ومنزلُ الغرباء

ما نحن فى الدنيا سوى أقصوصة تُتْلى ومرويٌّ من الأنباء

نأتى من (المجهول) غيرَ خوالفٍ ونعودُ (للمجهول) غيرَ بطاء

فإذا البُداءةُ والمصيرُ كلاهما لغزٌ يحيِّر أعظم الحكماء ....

محمد عبد الغني حسن

٢ - الفـــــــــــلاسفة

للأستاذ عطية الشيخ

للفيلسوف خواص من حيث التكوين النفسى نجملها فيما يأتى :

١ — الفيلسوف لا يتوسل لمعرفة الحقائق إلا بالأفكار المجردة والعقل الحر، فهو لا يثق بالحواس ولا بالمحسات ، ولذلك ترى كل بحث فلسفى استطاع العلماء إخضاعه للآلات والحواس والقوانين قد طرحه الفلاسفة ، لأنهم لا يهتمون إلا بالمعقولات المحض ، فكما أن العلماء لا يشتغلون إلا بما يستطيعون إثباته حسيا أو بدهيا ، لذلك ترى الفلاسفة قد تبرءوا من كل نوع من أنواع المعلومات التى خضعت للضوابط . ومن هنا ترى كثيرا من البحوث الفلسفية يصبح بعد زمن ما نظريات علمية ، تدخل تحت اسم علم من العلوم تاركة آباءها الأولين من الفلاسفة ، كأنما الفلاسفة هم الرواد والعلماء هم المستعمرون .

٢ — العاطفة عند الفيلسوف تكاد تكون معدومة، فهو لا يسير إلا برائد من تفكيره ؛ ولذلك لا يتقيد الفلاسفة بالتقاليد القومية . ولا بالعادات الشائعة ولا بما تواضع عليه الناس وأقره العرف ، فإذا كان الناس يستوحون البيئة والوراثة والتقاليد ، فإن الفلاسفة لا يتقيدون إلا بوحى العقل ودافع الفكر وهم عبيد ما اعتقدوه ينفذونه ويأخذون به من غير هوادة ، مهما لاقوا فى سبيل ذلك من الصعاب الداخلية والخارجية ، فالفيلسوف كما قال إميل فاكيه

(يسبر الأغوار فى طلب الحقيقة ، دون أن يبالى بما يعترض سبيله من مصاعب لأنه لا يرتاع من اصطدامه بالفجائع فى قراراتها ، أو من انتهائه إلى لا شىء) أو كما قال نيتشة (لا يكفى لطالب الحقيقية أن يكون مخلصا فى قصده ، بل عليه أن يترصد إخلاصه ، ويقف موقف المتشكك فيه ؛ لأن عاشق الحقيقة يهيم بها لذاتها ، لا مجاراة لأهوائه ، حتى ولو كان فى ذلك مخالفا لعقيدته ، فإذا هو اعترضته فكرة ناقضت مبدأه ، وجب عليه أن يقف عندها فلا يتردد من الأخذ بها ؛ عليك أن تصلى نفسك كل يوم حربا ، وليس لك أن تبالى بما تجنيه من نصر أو تجنى عليك جهودك من اندحار ، فإن ذلك من شأن الحقيقة لا من شأنك) ويقول أبو نصر الفارابى (يجب على الفيلسوف أن يكون قد تقدم وأصلح الأخلاق من نفسه الشهوانية ، كيما تكون شهوته للحق فقط لا للذة ، وأصلح مع ذلك قوة النفس الناطقة كيما يكون ذا إرادة صحيحة) ومن هذا كانت الفلسفة عدوا للشعر ، وكان تعاطيها مفسدا للملكة الشعرية ، ولا سيما فى الوجدانيات (إذ قد تكون مقبولة فى الشعر الاجتماعى) هذا الهيام بالحق لذات الحق ؛ والتخلص من كل موروث شائع — هو السبب فى أن الفلاسفة يوصفون بالشذوذ فى كل عصر ، فكيف يشابه الجمهور قوم لا يخضعون حتى للغرائز المشهورة بسطوتها ، فيحاولون إخضاعها لفكرهم ؟ .

٣ — الفيلسوف معتد بنفسه ، وليس معنى هذا أنه مغرور ، فإن الغرور والفطنة لا يجتمعان ، بل المراد أن الفيلسوف يشعر بشخصيته ، وأنه فرد مستقل عن سائر الأفراد ، وأن له عقلا من حقه عليه أن يستخدمه ، ويسير فى ضوئه ويترك أضواء الآخرين ، وأنه غير مجبر على ترك تجاربه والأخذ بتجارب سواه ؛ فاعتداده بنفسه إنما هو بالنسبة إلى غيره من الآدميين ، لا بالنسبة إلى الحقيقة ذاتها ، يقول نيوتن (إن العالم بحر ونحن لا نزال نلعب على شاطئه) ويقول سقراط (لا فرق بيني وبين الناس ، إلا أنني جاهل وأشعر بجهلى ، وهم

جهلاء ولا يعلمون أنهم جهلاء) وقال حكيم عربى (لايزال المرء عالما ماشعر بجهله ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل) والاعتداد بالنفس هو الذى يدفع الفيلسوف إلى التفكير فى كل شىء ، ويجعل عقله فى حركة مستمرة ، فيأبى إلى أن يسير فى طريق جديدة غير مألوفة ، مهما كلفه ذلك من المشقات ، بل إنه يجد فيما يصادفه من المشقات لذة ، كلذة سعى الحبيب إلى بيت حبيبه ، تكتنفه الظلماء ويترصده الرقباء .

٤ — الفيلسوف لايبحث إلا فى المبادىء الأولى للمعرفة والنظريات الكلية ، ، أما تفاصيل العلوم الخاصة فهو لا يهتم بها ؛ لأنه مشغول بالوصول الى الحقيقة الكبرى ، فهو إذا آمن بكلية من الكليات ، اتخذها مقدمة للوصول إلى حقيقة فوقها ، ولذلك عرف ديكارت الفلسفة ، بأنها معرفة المبادىء الأولى ولذلك كانت الفلسفة لاتتأتى إلا لذوى الذكاء الشديد ، فقد قال الفريد بينيه (إن الذكاء إنما يظهر فى التصرفات التى تحتاج إلى بناء وتركيب) فعقلية الفيلسوف ممتازة بقوة الربط بعد حسن التعليل ، وبقوة التجنيس والتصنيف بعد كثرة الجمع ، وإذا كان غير الفيلسوف وعاء لعدم ، فالفيلسوف لايعرف إلا علما واحدا ، ولكنه حاز للمبادىء الأساسية لكل العلوم ، فأرسطو هو المعلم الأول للفلاسفة وللعلماء ، ومما يؤسف له أن هذا المعنى للفيلسوف قد تغير فى هذا العصر ، الذى سادته روح التخصص والتقسيم ، فأصبح الفيلسوف يسعى إلى معرفة حقائق جزئية فى علم خاص ، فهذا الفيلسوف فى الرياضة ، وذلك فى التاريخ ، وذاك فى الطبيعة .. الخ ، وإنما هذه هى مهمة العلماء لا الفلاسفة ، لأن الفيلسوف يجب أن يكون مشغولا بحقيقة واحدة ، تدور فى ذهنه من حولها كل النظريات ، فالفيلسوف قائد والعلماء جنود ، وإذا نسى القائد مركزه العام وانهمك فى ناحية خاصة ، ضل الجيش كله ، وخسر خسرانا مبينا ، فهذا التخصيص فى الفلسفة الذى أودى بالمثل العليا فى هذا العصر ، وحرمنا ظهور أمثال سقراط

وأرسطو وأفلاطون ، الذين لانزال عيالا عليهم فى مناهج الفلسفة ومبادئها ، وإذا كان الفيلسوف المختص يبتكر نظريات أكثر ، فإن المعارف الإنسانية مهما كثرت لن تستطيع حل المشكلة الكبرى التى فكر من أجلها الإنسان . مادامت مقطعة الأوصال غير متساوية ! فالفلسفة من شأنها أن تأخذ بزمام العلوم ، وتوجهها وتفتح أمامها الآفاق ، وأن تخدمها العلوم لا أن تصبح هى خادمة لها .

٥ — الفيلسوف يشعر فى أول حياته العقلية بنقص عن الناس فى التفكير، وذلك لأنه لايشعر بالفهم إلا إذا كان البرهان دقيق المنطق،والعلل والمعلولات مستقيمة ، فهو باستعداده الفطرى لايهضم الخطأ ، وأما غيره من الناس فيقتنع بالفهم السطحى ، ولا يقوى فكره على كشف المغالطات الكامنة فى المسائل، وعند ذلك يرى الفيلسوف الصغير جميع من حوله مرتاحين للمسألة ، مدعين فهمها ، ثم ينظر هو إلى نفسه فيجد الفهم مستعصيا عليه ، والمعانى قلقة فى ذهنه ولحسن ظنه بالناس إذ ذاك ، يسىء الظن بنفسه ، ومن عناية الله به وتوفيقه له أن يذهب هذا المذهب ، لأن ظمأه إلى الحقيقة من جهة ، وشعوره بالنقص من ناحية أخرى ، يدفعانه إلى إدمان النظر ، وطول السهر ، واحتمال الضجر ، حتى يصل إلى مراتب رفيعة فى التفكير ، ومن كرسيه العالى ينظر حوله إلى الناس ومعارفهم ودعواهم نظرة شك وارتياب . فيطرح كل ماتعلمه منهم على الغربال، ولا يثق إلا بتفكيره هو ، ويأخذ على عاتقه مهمة المعلم لهؤلاء الضالين ، ليبين لهم وهمهم، ويصل بهم إلى الصواب . كما كان يفعل سقراط ، وإنك لاتجد عبقريا إلا كان يشعر بالنقص وهو صغير ؛ فكل فيلسوف لابد أن يمر بطور الاستضعاف ، ثم بطور الاعتداد بالنفس ، ثم بطور الشك فى كل شىء ، ولذلك مامن فيلسوف إلا اتهم بالإلحاد ؛ فالعلة التى حوكم من أجلها سقراط ، لازمت جميع الفلاسفة ، غير أن هناك فرقا بين شك الفلاسفة وشك السفسطائيين

فالفيلسوف يشك ليصل إلى الحق من طريق قويمة ، وأما السفسطائى فغايته المغالطة والشك لذات الشك .

٦ — أغلب معلومات الفيلسوف ذاتية ، أعنى أنه وصل إليها بجهوده هو ولذلك ترى لكل فيلسوف شخصية تميزه كل التمييز ، حتى لو اشترك فيلسوفان فى رأى واحد ، لبس كل معنى من نفس صاحبه مايخلع عنه مظهر النقل والأخذ فأعدى أعداء الفلسفة التقليد والتطفل ، وهو إذا تعرض لآراء الناس ، فإنما يتعرض للموازنة والنقد ، فكل ماعرف الفيلسوف من المعلومات عن غيره ليس له فى نفسه إلا قيمة المشحذ بالنسبة إلى السكين ، وإذا أعجب الفيلسوف برأى لغيره ، أووجده يحل مشكلة عجز هو عن حلها ، نقل لبناته وأضاف بها حجرة إلى قصر معرفته ، وأعطاها صبغته الخاصة وطريقته فى البناء ، بحيث لاتبدو غريبة عنه ، بل ممتزجة ببيته كل الامتزاج ، ولذلك يمتاز الفلاسفة عن غيرهم بقوة الإيمان بآرائهم ، والتفانى فى سبيلها كما يتفانى الأب فى حب أبنائه ، ولذلك ترى رغبة الفلاسفة فى التفكير المباشر أكثر من رغبتهم فى قراءة آراء غيرهم ؛ بل إن الفيلسوف لايقرأ الكتب إلا للترفيه عن نفسه عندما يضنيها القراءة فى كتاب الكون الأعظم ؛ فالفيلسوف لاواسطة بينه وبين أستاذه الكون ، يترجم مايوحى إليه منه ، كما يبلغ الرسول الوحى عن ربه .

٧ — الفيلسوف حاد الذهن ، قوى الملاحظة ، واسع الفكر ، ولذلك ينقل ذهنه كل مايرى ، ويضبطه ضبطا تاما ، فهو من هذه الناحية كالشاعر ، إلا أنه لايقف عند حد الامتزاج بالكون ، بل يرقى بنفسه عن ظواهره ليقف منه موقف التاجر من سلعته ، والراعى من شويهاته ، فالشعر هو الخطوة الأولى للفلسفة فى الأفراد والأمم ، ولذلك كان أكثر الفلاسفة شعراء ، كما قال مؤرخو الفلسفة « إن شعراء اليونان الأوائل كهوميروس وهزيود وممزم الأزميرى وأرشيلوك . . . الخ هم الذين مهدوا الطريق للفلسفة اليونانية ولاسيما بعد أن بدأ

الشعراء الحكماء يدونون خواطرهم وتأملاتهم ، والشعر الاجتماعى وسط بين الفسلسة والشعر ، كالشعر الاوروبى الحديث

وقد حدث بعض المتصوفين قائلا : إنه تدرج من الشعر إلى الفلسفة ومن الفلسفة إلى التصوف ، ويحسن فى هذه النقطة الإشارة إلى أن عقل الفيلسوف لا يشيخ فهو فى اتساع ورقى باستمرار ، وكأنه المعنى بقول الإمام على « كل إناء يضيق بما يوضع فيه ، إلا إناء العلم ، فإنه يتسع » فعقول الناس كأجسامهم ، تخضع لقانون الصعود ثم الهبوط ، إلا عقول الفلاسفة ، فهى فى صعود مستمر ، من حيث الدنو إلى الحقيقة ، كلما طلع على الفيلسوف يوم وجد نفسه فى أفق أعلى من سابقه ، كطائر كلما على نبت له ريش جديد . يساعده على العلو ، وكذلك يتصل بهذه النقطة سرعة فهم الفلاسفة لآراء غيرهم ، لأن كثرة تجوالهم الفكرى يجعل كل نظرية لغيرهم قد مرت عليهم ، فيفهمون مراد غيرهم من الاشارة الأولى ، ويكرهون الإطناب فى الكتابة أو النقاش .

٨ — أسلوب الفلاسفة غامض لا لغموض المعانى واستغلاقها عليهم ، ولا لماذهب إليه الفارابى (من أنهم يتعمدون ذلك لثلاثة أشياء ١ - استبراء طبيعة المتعلم ، هل يصلح للتعليم أم لا ؟ ٢ - لئلا تبذل الفلسفة لجميع الناس ، بل لمن يستحقها فقط ٣ - لترويض الفكر بالتعب فى الطلب) ، كلا بل لأنهم يقيسون فهم الناس بفهمهم ، وقد تعودوا أن تكفيهم الإشارة ، ولأن ما يتناولونه معقولات مجردة من الحس والزخرفة ، ولأن معلومات الفيلسوف قد تطورت وبعدت عن معقول الناس ، لأنه بناء مستمر فى البعد عن الأساس والتحليق إلى أعلى ، فالذى فكر فيه الفيلسوف طويلا وأصبح عنده بديهة ، يصح أن يتخذها مقدمة فى برهانه وفرضا فى إثباته ، هى نفسها لاتزال شيئا جديدا عند الناس يحتاج إلى الجدل ، فكأنما أصبح بين أفكار الناس وأفكاره حلقة مفقودة ومن هنا مل الناس قراءة الفلسفة وأبغضوا الفلاسفة ، وأصبحت كتب الفلسفة

خاصة بالفلاسفة ، مع أن العلم والشعر وبقية الفنون للجميع ، ألا ترى أن تقدير الفيسوف والانتفاع بآرائه يحدث بعد زمن طويل .

٩ — الفيلسوف سابق لزمانه ، بل إن الفلاسفة غير مقيدين بزمان ، فما دامت الموضوعات التى يعالجها الفيلسوف عقلية محضا ، فإنه لافرق بين فلسفة سقراط من حيث الكيف ، وبين فلسفة بيكون ونيتشة وشوبنهور ، ومهما اختلفت الموضوعات والنظريات فهى من حيث العلو والجدة متشابهة ، لاتبلى ولا تهرم ، بعكس النظريات العلمية التى يهدم بعضها بعضا كل يوم ، ولذلك لم يخطىء الفلاسفة إلا فيما تناولوه من الموضوعات العلمية ، فآراء أرسطو فى الجغرافيا يسخر منها الآن صغار التلاميذ ، ولكن آراءه الفلسفية المجردة لاتزال لها قيمتها ، بل لاتزال أساس الفلسفة إلى اليوم .

١٠ — الفلسفة بنت الألم ، فهو أكبر دافع إلى التفلسف ، وقد يكون هذا الألم شخصيا منشؤه الأسرة أو الحب أو الصحة أو المال .. الخ وقد يكون قوميا منشؤه تألم المرء لحال قوم ، وقد يكون منشأ الألم البيئة الطبيعية ، وعدم انسجامها مع مزاج الشخص ، وكذلك عصمت هذه الديار عن أن تنجب فلاسفة ، وانعدم المزاج الفلسفى من المصريين ، مما كان له أسوأ الأثر فى سيرهم ، فأصبحوا متشابهين فى آمالهم المادية ، كأنهم نسخ مطبوعة لكتاب واحد ، فلو تقصيت عقولهم لما شعرت بشخصيات مختلفة ، والسبب فى ذلك خلو هذه الديار من دواعى الحزن والألم ، فالخيرات كثيرة ، والجو معتدل والخضوع للحاكم كان قد وقر فى أذهانهم منذ آلاف السنين ، فهم عبيده لايتبرمون من أفعاله ، فامحى الألم من الأشخاص وضاق الفكر ، وانعدم التفلسف . ولعل هذه النهضة الأخيرة . التى أشعرتنا بعيوبنا ، وأنارت عقولنا وألفت بين قلوبنا ، وذكرتنا بماضينا فتألمنا لحالنا — تساعدنا على تكوين طبقة

من الفلاسفة ، يسعون وراء المثل العليا ، وتشرق عليهم الأنوار المقدسة ، ويسيرون فى وسط هذا المجتمع الراكد ، بشعلهم السماوية ، مناضلين بإيمان لايتزعزع عن الحق ، ليصلحوا من نفوس هذه الأمة ماأفسده الدهر ، ويمنعوها من الركون إلى كل موروث رث ، ويحاربوا الاطمئنان إلى معلومات كلها خرافات وترهات ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ؟

عطية الشيخ
معلمات القبة

تيسير اللغة العربية وتهذيبها

للأستاذ محمد على الدسوقى

المقـــدمة

إصلاح اللغة العربية وضبطها لا يعدو ان مرحلتين عظيمتين ، قام أسلافنا بالمرحلة الأولى منهما وكفونا مئونة البحث فيها ، وكانوا عليها حفاظا وعلى تنسيق اللغة فيها حراصا . وأعنى بها أدوار تهذيب اللغة وتنقيحها . وأعنى بالثانية مانعانيه الآن من كثرة اللحن والتحريف ، وشحذ الهمم ، وتضافر القوى ، وحفز القرائح لتلاقيهما . ومانراه من حشد وزارة المعارف جميع قواها للقضاء على الأمية ، وتيسير تعلم اللغة العربية ، وضبطها بكافة الوسائل الممكنة وما يبتكره أبناء دار العلوم ، ومايستوفزونه من هممهم وأفكارهم للوصول إلى هذه الغاية من أقرب طريق .

المرحلة الأولى

قد عنى الأقدمون بتهذيب اللغة وتنقيحها ، وقد تم ذلك فى أربعة أدوار .

(١) فأول تنقيح دخل اللغة العربية كان بعمل يعرب بن قحطان ، رأس العرب العاربة ؛ وجرى أولاده على لغته فى أنحاء اليمين كلها ، ثم تفرق جماعة منهم فى نجد والحجاز وتهامة والشأم والحيرة .

(٢) الثانى كان من عمل إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، فإنه لما أصهر[١]

---

(١) أصهر أى تزوج.

إلى قبيلة جرهم ، أدخل تنقيحاً ثانياً فى اللغة ، وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ، ومضر وكنانة ونزار ، وخزاعة وقيس وضبة .

(٣) والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج ، انتخابا من لغات قبائل العرب التى كانت تفد عليهم فى كل عام ، وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوما : منها ثلاثة أيام بسوق ذى المجاز ، وسبعة بسوق مجنة ، وثلاثة بسوق عكاظ ، وعشرة فى مناسك الحج .

(٤) والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصريين البصرة والكوفة نقلة اللغة فى عصر الأمويين والعباسيين ، وقد قصروا اختيارهم على القبائل الست الآتية : ـ

قال السيوطى فى المزهر نقلا عن أبى نصر الفارابى : كانت قريش أجود العرب انتقادا للأفصح من الألفاظ ، وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعا ، وأبينها إبانة عما فى النفس ، والذين نقلت عنهم اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم : (١) قيس ، (٢) وتميم ، (٣) وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ماأخذوا معظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب ، وفى الإعراب والتصريف ، (٤) ثم هذيل ، (٥) وبعض كنانة ، (٦) وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم ؛ وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضرى قط ، ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لامن لخم ، ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاعة وغسان ، وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولامن تغلب فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولامن بكر لمجاورتهم للقبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان ، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم الهند والحبشة .

ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة [١] الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، والذى نقل اللغة واللسان العربى عن هؤلاء وأثبتها فى كتاب فصيرها علما وصناعة — هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب .

المرحلة الثانية كثرة اللحن والتحريف وإصلاحهما .

لم يكن اللحن والتحريف وليدى القرون المتأخرة ، فقد بقى التغيير فى اللغة العربية مقصورا على الأمصار الإسلامية إلى انتهاء القرن الثالث الهجرى؛ وقد عرف بعضهم المولد بأنه ما يكون من هذا الضرب لحناً وتحريفاً ، وكانوا يسمون الألفاظ التى من هذا القبيل بالسوقية ، لأنها لغة أهل الأسواق والتجار الذين يأتون من كل فج ؛ وآخر من يعتد بكلامه من الشعراء بشار ابن برد ، وهو بصرى قدم بغداد وأصله ، من طخارستان من سبى المهلب بن أبى صفرة ، وكان أكمه (ولد أعمى) وكان يمدح المهدى ، وتوفى سنة ١٦٧ ﻫ وقد نيف على التسعين .

وقد عنى العلماء قديماً وحديثاً برد العوام عن تحريف الكلم ، وألفوا فى ذلك كتباً شتى . ككتاب أبى عبيدة ، وأبى حنيفة الدينورى ، وأبى عثمان المازنى ، وأبى حاتم السجستانى ، وكتاب الفاخر للمفضل ، ولحن العامة للفراء . وهؤلاء لم يتعدوا المائة الثالثة ، ولم يعدوا فى صنيعهم ألفاظا حرفتها العامة ، ثم تعدوا ذلك إلى التأليف فى لحن الخاصة بعد القرن الثالث ، ككتاب أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ ﻫ ودرة الغواص فى أوهام الخواص . للحريرى ، لأن اللحن إذ ذاك كان يؤاخذ به خواص الكتاب لاعوامهم . لأن أولئك العوام صار اللحن لغتهم .

---

(١) هى مكة .

وقد ألفت فى إصلاح العامى والدخيل كتابى المسمى (تهذيب الألفاظ العامية) وهو جزءان الأول ٣٢٤ صفحة ، والثانى ٣٧٨ صفحة . وقد أخذ مجمع فؤاد الأول على عاتقه مهمة إصلاح العامى والدخيل ، وترجمة الإصطلاحات العلمية ، وبقى أكثر من خمس سنوات يواصل البحث والتنقيب ، وقد صدر من مجلة هذا المجمع أربعة أعداد حافلة بما قام به أعضاؤه من مجهود ، وقد عنيت وزارة المعارف من ناحيتها بإصلاح مناهج اللغة العربية وتيسير تعليمها على أقوم طريق ، وقد جعلت رائدها الاكتفاء من القواعد بما تدعو إليه الضرورة ، وعدم شحن أذهان الطلبة بالكثير الصعب من القواعد الذى يصرفهم عن الرغبة فيها ، وعنيت بتأليف الكتب الشائقة السهلة الأسلوب ، المتينة التراكيب ، التى تمثل السهل الممتنع ، ولا تزال جادة فى هذه السبيل بخطى موفقة ، مؤدية للأمانة التى اؤتمنت عليها ، والتى وضعتها الأمة فى عنقها .

المبحث الأول

فى سهولة تعلم اللغة العربية وضبطها على أبناء العرب الأول .

كانت اللغة العربية فى زمن الجاهلية والصدر الأول من الإسلام غضة الشباب ، سليمة الإهاب ، لا يعتورها لحن ولا تحريف ، وقد بقيت فى ريعان شبابها إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين ، لأن الأبناء كانوا يتلقونها عن الآباء ، ولم يكن ثمة بينهم دخيل تفسد لغتهم أو يشوبها بلحن أو تحريف ، وقد ظهر قليل من اللحن فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد ورد أنه مر بقوم يرمون فاستقبح رميهم فقال،ما أسوأ رميكم ، فقالوا : نحن قوم (متعلمين) فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم .

وهذا إنما حصل من الموالى والمتعربين ، لصعوبة تمييزهم أحوال المثنى والجمع فى الرفع والنصب والجر، كما يصعب ذلك على المتعلمين [1] منا الآن ،

(١) المشتغلين بالتعلم

وقد ورد أن كاتبا لأبى موسى الأشعرى ، كتب إلى عمر : (من أبو موسى الأشعرى) ، فكتب عمر إلى أبى موسى : عزمت عليك لما ضربت كاتبك سوطا .

ويظن أن هذا أول لحن وقع فى الكتابة . ولما رأى الإمام على كثرة اللحن ، خشى على كتاب الله أن يمسه التحريف ، فوضع القواعد الأساسية لعلم النحو ، وعلمها أبا الأسود الدؤلى ، وقال له « انح هذا النحو »فسمى هذا العلم علم النحو ، ثم كتب فى هذه الصناعة الناس من بعده . إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدى أيام الرشيد أحوج ما كان الناس إليها ، لذهاب ملكة الإعراب من العرب ، فهذب الصناعة وكمل أبوابها ، وأخذهاعنه سيبويه فكمل تفاريعها ، واستكثر من أدلتها وشواهدها .

المبحث الثانى

فى سبب اختلاف لغة الكتابة عن لغة التخاطب عند الأمم المتعربة ، وعدم اختلافها عند الأوربيين

من الحقائق المقررة ، أن الأمم الأوربية يتخاطبون ويكتبون بلغة واحدة ، إلا فى النادر،أما الأمم المتعربة ، فلغة الكتابة عندهم – وهى الفصحى – تخالف لغة التخاطب – وهى العامية . وهذه سبة لتلك الأمم لاخلاص لهم منها ، ولامعدى لهم عنها إلا ببذل الجهود الجبارة ، وتضافر القوى على توحيد اللغة ، وقد استشرى هذا الداء ، وتغلغل فى الأمم العربية حتى امتزج بلحمها ودمها ، وظن المتشائمون أن من يحاول انتشال هذه الأمم من هذا الدا الوبيل ، كمن يحاول التعلق بخيوط الشمس ، أو كمن ينقش فى الهواء ، أو يكتب على صفحات الماء ، وقالوا : أنى للغة إصلاح وقد صوح[1] نبتها ، وأفل نجمها؟

وفى الحق ، أن الأمة العربية الصحيحة براء من هذه الوصمة ، فقد بقيت

(١) ذبل .

تتكلم وتكتب بلغة عربية صحيحة ، إلى قبيل انتهاء القرن الثانى الهجرى ، ثم فشا اللحن والتحريف ، ودبّ الفساد فى اللغة بين المتعربين ، حتى اتسعت شقة الخلاف بين الفصحى لغة الكتابة ، والعامية لغة التخاطب ، ومازالت تنفرج مسافة الخلف بينهما إلى هذا العهد . فى الأقطار التى افتتحتها الدولة العربية ، مثل مراكش والجزائر وتونس ، وبرقة ومصر والشام والعراق ، حتى عم الفساد البلاد العربية نفسها ، وهى الحجاز واليمن ، ماعدا بعض القبائل فى نجد والعسير من أعمال اليمن ، فإنها بقيت محافظة على لغتها إلى اليوم ، تتكلم وتكتب بلغة عربية صحيحة ، ماعدا بعض هفوات قليلة ، وقد رأيناهم بأعيننا وسمعناهم بآذاننا ، وقرأنا أشعار الأميين منهم ، فإذا هى لاتختلف عن أشعار المتعلمين فى الصحة والضبط .

وقد رأينا مسافة الخلاف تضيق الآن بين العامية والفصحى ، ولاسيما فى مصر والشام والعراق . بفضل نشر الثقافة والتعليم فى ربوع تلك البلاد ، فإذا أخذت بقسط وافر من العلم والأدب ، ونبغ فيها الكتاب المجيدون الذين يشار إليهم بالبنان ، مثل المويلحى والمنفلوطى وحفنى ناصف والسيد توفيق البكرى ومصطفى الرافعى وطه حسين وحسين هيكل والمازنى ، وغيرهم ممن تصبغوا بالأدب ، وحازوا فى مضماره قصب السبق ، وظهر فيها الشعراء المبرزون فى حلبة الشعر ، كأمير الشعراء أحمد شوقى ، وحافظ ابراهيم ، وخليل مطران ، ومعروف الرصافى ، والبارودى ، واسماعيل صبرى ، والجارم ، والعقاد ، ومصطفى الرافعى ، وأحمد رامى ، وغيرهم من فحول الشعراء الذين ذاع صيتهم فى الآفاق ، وتغنت بشعرهم بلابل الروض فى كل مكان

ولايزال التعليم فى مصر من إلزامى وابتدائى وثانوى وجامعى يهدم من صرح العامية ويشيد من صروح العروبة الفصحى ، ولا يمضى ردح من الزمن حتى نرى بناء العامية قد انهار ، وقامت على أنقاضه العربية المهذبة شامخة

البنيان ، متينة الأركان ، حتى تعود إلى سالف مجدها ، وتليد عزها ، كما كانت فى عهد الدولة الأموية ، وصدر الدولة العباسية ، زمن المهدى والرشيد والمأمون والمعتصم ، حقق الله الآمال ، إنه هو الكبير المتعال .

المبحث الثالث

(فى أسباب صعوبة ضبط اللغة العربية على المتعربين)

(وسهولة ضبط اللغات الأوربية على المتعلمين)

قد امتازت اللغة العربية على سائر اللغات بالدقة والاختصار، لأن الحركات فيها تدل على كثير من المعانى نحو الرفع الدال على الفاعلية ، والنصب الدال على المفعولية . وضم التاء فى نحو قلت الدال على المتكلم ، والفتح الدال على المخاطب المذكر نحو ذهبت ، والكسر الدال على المفردة المخاطبة نحو حضرت. وكذا التقديم والتأخير ، نحو إياك نعبد ، فإن التقديم هنا دال على اختصاص المخاطب وهو الله بالعبادة ، وبعض الحروف ، كلام التوكيد ولام القسم ، لأنه يستغنى بها عن ألفاظ أخر ، فلام التأكيد تغنى عن أؤكد ، ولام القسم تغنى عن أقسم ، فلذلك كانت الملكة العربية أدق الملكات وأصعبها على غير أهلها ولزيادة الإيضاح نقول :

يستدل على المحكوم عليه فى اللغة العربية بأحد أسلوبين : الأول تقدم المحكوم عليه ، ويسمى مبتدأ ومسندا إليه ، نحو قولك محمد عالم ، فقد حكمت له بالعلم ، أو أسندت إليه ؛ والأسلوب الثانى تأخير المحكوم عليه وهو المسند إليه ، وتقديم المحكوم به أو المسند وهو الفعل وشبهه ، نحو قولك سافر محمد . ونحو أمجتهد أخوك ؛ فقد حكمت على محمد بالسفر ، واستفهمت عن اجتهاد أخى المخاطب ، ولو وقف الأمر عند هذا الحد لم يحصل لبس ولا صعوبة فى تمييز المحكوم عليه عن المحكوم به ، ولكن فى الأسلوب الأول

قد يتقدم المحكوم به على المحكوم عليه لأغراض مرغوبة، تجعل للكلام دقة وروعة، كالاهتمام به وانصباب القصيد عليه فى نحو قوله تعالى: «أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم» فإن الاستفهام التعجبى واقع على مابدا من إبراهيم من الرغبة والانصراف عن آلهتهم، لاعلى ذات الفاعل.

ولو قيل: «أأنت راغب عن آلهتى يا إبراهيم»؟ لكان التعجب واقعا على ذات الفاعل، ولأفاد الكلام أنه لو كانت الرغبة من غيره لما تعجب منها، ونحو قول الشاعر:

غافل أنت والليالى حبالى بصنوف الردى تروح وتغدو

فإن القصد منصب على غفلة المخاطب عن صروف الزمان، لا على نفس المخاطب.

ثم لايجوز تقديم الخبر على المبتدأ إذا خفيت الملاحظة وحصل اشتباه، كأن يتساوى كل منهما فى التعريف أو التنكير بدون مميز يميز الأول عن الثانى، نحو قولك: أخى أخوك، فيجب أن يكون الأول هو المحكوم عليه (أى المبتدأ) ويلزم تقديمه، ولا يجوز تأخيره، فهذا مثال المتساويين فى التعريف، ومثال المتساويين فى التنكير قولك لآخر: أفضل منك أفضل منى فيجب أن يكون المحكوم عليه (أى المسند إليه) هو الأول، ولا يجوز تأخيره.

وفى الأسلوب الثانى، قد يصحب الفاعل المفعول به، فيحتاج القارىء قبل أن ينطق بهما إلى ملاحظة، أن الأول هو الفاعل الذى وقع منه الفعل، وأن الثانى هو الذى وقع عليه الفعل، ثم يرفع الأول وينصب الثانى، فإذا سها عن هذه الملاحظة وكان المفعول به مقدما على الفاعل، وقع فى الخطأ، فرفع الأول وهو المفعول به، ونصب الثانى وهو الفاعل، ولا سيما إذا كان المفعول به ليس فى آخره ألف ولا فتحة تدلان على نصبه، بأن كان ممنوعا من

الصرف ، نحو أكرم عمر محمد ، أو مقصورا ، نحو أكرم موسى محمود ، فإذا أراد أن يسلم من الخطأ ، نظر أولا إلى الاسم الثانى وفهم المعنى من سياق الكلام ، ثم نصب الأول ورفع الثانى ، وخلص من هذه الورطة.

ولهذا نجد كثيرا من المبتدئين يقعون فى مثل هذا الخطأ ، ولا يجديهم ماتعلموه من القواعد نفعا ، فى مثل هـذه المواقف التى يزل فيها كثير من المتعلمين أيضا .

نعم قد احتاط النحويون فمنعوا تقديم المفعول به على الفاعل إذا حصل اشتباه بينهما ، بأن كان الإعراب لايظهر على كل منهما ، نحو أكرم موسى عيسى ، فأوجبوا أن يكون الأول هو الفاعل والثانى هو المفعول به ، ولا يصح أن يكون موسى مفعولا به مقدما ، للاهتمام به مثلا ، لعدم مايدل على ذلك فى اللفظ .

سبب ضبط اللغات الأوروبية

سببه أن للدلالة على المحكوم به والمحكوم عليه — صيغة واحدة فى اللغتين الإنكليزية والفرنسية مثلا ، وذلك أن المحكوم عليه يتقدم دائما على المحكوم به وهو الفعل ، ثم يليهما المفعول به ، فلا يحصل اشتباه ، فإذاأردت أن تعبر عن إكرام محمد لعلى قلت : محمد أكرم عليا ، لاتتعدى هذا الأسلوب أضف إلى ذلك أن الحركات فيها يستدل عليها بحروف فى صلب الكلمة ؛ فلا يقع من القارىء أى اشتباه فى النطق ، لافى وسط الكلمة ولا فى آخرها ، ويقوم مقام الإعراب عندهم حروف تدل على الرفع والنصب والجر ؛ والتنوين يكتب نونا ، ولذلك كثرت حروف الكلمة عندهم ؛ حتى صارت ضعف حروف الكلمة العربية .

ولكن تعدد الأساليب فى اللغة العربية لا يعد عيبا حقيقيا ، لأن فيها من

الأساليب ما فى اللغات الأوربية وزيادة ؛ فإذا أراد المتكلم أن يأتى بأسلوب سهل المتناول ليس فيه اشتباه على السامع ، قدم المبتدأ ووسط الفعل ، وأتى بعدهما بالمفعول به ، كما فى اللغات الأوربية ، فبدلا من أن يقول رأى يوسف عمر سائرا أمام الحديقة . قال : يوسف رأى عمر الخ .

وقد تعددت أساليب اللغة العربية واعتراها التقديم والتأخير فى مفرداتها تبعا لأغراض شريفة ، صار كل بليغ بها حفيا ، وهذا لا يعد دليلا على ضعف تراكيبها ، وصعوبة تأليفها ، بل ينهض برهانا على اتساع مواردها ، وسهولة التصرف فيها بشتى الأساليب ، ليختار المتكلم أشدها وقعا فى النفس ، وروعها عند التخاطب ، وأقربها لمقتضى الحال ، حتى تخلب اللب ، وتأسر القلب ، ولهذا السبب عجز فطاحل الكتاب الأوربيين وغيرهم عن ترجمة القرآن الكريم ، والإتيان بتراكيب فى لغاتهم ، لها من الروعة والإعجاز مالتراكيب القرآن ، وأنى لهم ذلك وقد أعجز بأسلوبه ومتانة تراكيبه أمراء البلاغة ، وفرسان الرهان من العرب الخلص ، الذين كانت تسجد لبلاغتهم الجباه ويستوقف بيانهم القلوب ويملأ الأسماع حلاوة ، وحسن طلاوة .

وبهذا سقط القول بأن صعوبة اللغة العربية ناشئة من أن الإنسان يفهم أولا ليقرأ .

أما فى اللغات الأوربية ، فإن الإنسان يقرأ ليفهم ، فقلت علمت أن هذا خاص ببعض التراكيب ، وأن المتكلم له مندوحة عنها متى أنس من السامع أو القارىء المبتدىء اشتباها ، ففى الحديث الشريف : « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » وقالت العرب « لكل مقام مقال » وللخوف من اللبس ترى العامة فى الغالب يجعلون تراكيبهم مكونة من المبتدأ والخبر ، لا من الفعل والفاعل فيقولون « محمود حضر ، لا حضر محمود ، لأنهم يقفون

على المنصوب بالسكون على لغة ربيعة ، فيشتبه المفعول بالفاعل إذا قالوا « كلم محمود محمد ، مثلا » .

ولما كان التقديم والتأخير فى المبتدأ والخبر عن موضعهما الطبيعى يوجب الاشتباه ، ما لم يتميز أحدهما عن الآخر ـ عدوه من الإخلال بفصاحة الكلام ، واعتبروا الفصل بينهما بكثير من المتعلقات موجبا للتعقيد المعنوى وأكثر ما يكون ذلك فى الشعر ، لأن الوزن يحتم على الشاعر أن يقدم بعض المتعلقات وغيرها عن موضعها ، ليستقيم له الوزن كقول الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فإن نظم البيت ـ لكثرة التقديم والتأخير يوهم أن خبر الناس (هو الجار والمجرور) فى قوله للناس ، كما يقال الناس بالناس ، أو أن الخبر هو جملة (بعضهم لبعض) . والحقيقة أن (خدم) خبر بعض والجملة خبر الناس ، والرابط محذوف ، والتقدير بعضهم لبعض ، والجار والمجرور فى قوله للناس متعلق بمحذوف حال من الناس ، أى الناس حالة كونهم مجاورين للناس ، ومن بدو وحاضرة بيان للناس ، ويصح أن يكون (بعض) بدلا من الناس بدل بعض من كل ، (وخدم) خبر الناس ، والرابط محذوف ، أى بعضهم ولبعض متعلق بخدم فلو أراد الشاعر أن يؤدى هذا المعنى فى نثر لقال : الناس للناس من بدو وحاضرة بعضهم خدم لبعض وإن لم يشعروا ، ومثله قول الفرزدق(١)

وكل رفيق كل رحل وإن هما تعاطى القنا قوماهما أخوان

فإن نظم البيت يوهم لكثرة التقديم والتأخير ـ أن خبر كل الأولى هو جملة (قوما هما أخوان) والحقيقة أن خبره أخوان ، و (قوماهما) فاعل تعاطى و (القنا) مفعول مقدم .

---

(١) هذا البيت من قصيدة يخاطب بها ذئبا عشا الى ضوء ناره فأطعمه من طعامه ومنها

تعش فإن عاهدتنى لا تخوننى نكن مثل من ياذئب يصطحبان

والمانع من إرادة المعنى الأول ، وجعل الخبر جملة (قوماهما أخوان) ـ أمران . أحدهما معنوى ، وهو أن المقصود كون الرفيقين أخوين لا قومهما فقد يكون القومان أخوين ، وبعض أفرادهما أعداء ، فالمعنى عكس هذا ، وهو أن رفيق الرجل أخوان ، وإن كان قوماهما متحاربين ؛ والآخر لفظى وهو أنه لو أراد المعنى الأول لثنى الفعل (تعاطى) وقال : وإن هما تعاطيا القنا ، لأنه عائد على مثنى وهو (هما) فيجب إلحاق علامة التثنية به ، أما إذا كان قوماهما فاعلا ، تجرد الفعل من علامة التثنية ، تبعا للقاعدة المقررة من أن الفعل إذا أسند لاسم ظاهر مثنى أو جمع ـ جرد من علامة التثنية والجمع .

ولو أنه كان فى حل من وضع الألفاظ موضعها فى نثر لقال : وكل رفيق كل رحل أخوان وإن تعاطى قوماهما القنا .

المبحث الرابع

(فى ضبط اللغة بطريق التلقين وكثرة المطالعة لا بكثرة القواعد)

إذا أردنا أن نرجع باللغة العربية إلى نشأتها الأولى وعهدها الغابر ، من سهولة النطق بها وصحة ضبطها ، فعلينا أن نتتبع ما كان يربب به العرب أبناءهم ، وما كانوا يفعلونه فى تلقينهم اللغة ، وتغذيتهم بها مع ألبان أمهاتهم قبل أن يغادروا المهد ، وما كانت المرأة ترقص به طفلها وهو لم يفارق بعد حجرها كقول امرأة من العرب وهى ترقص ابنها

أنت تكون [1] ماجد نبيل إذا تهب شمأل بليل

فمن لنا بأمهات يناغين أطفالهن بالعربية الفصحى قبل أن يدرجوا من عشهم ، حتى تختلط بلحمهم ودمهم ، وتجرى منهم مجرى النفس فى الحناجر ، فلا تتحرك شفاههم إلا بها ، ولا تنطق ألسنتهم إلا بالإعراب عنها ، ومن لنا بآباء فصحاء أمناء على تلقين أبنائهم صحيح اللغة منذ نعومة أظفارهم ، حتى يشبوا

(١) تكون زائدة

خطباء مفوهين يهزون أعواد المنابر ، ويقودون الأمة ببلاغتهم إلى أسمى المفاخر ويكون منهم الشعراء المفلقون ، والمحامون المداره ، والمربون المهذبون الذين يسمون بلغتهم إلى سالف مجدها ، وغابر عزها ، ولا يتوهمن متوهم أن هذا عسير متى تضافرت عليه الأمة وشدت إليه عزائمها .

وأصدق مثل على أن هذا فى حيز الإمكان ما سمعته من قاضى قضاة مصر [١] فقد رأيته ينطق العربية الفصحى بدون تكلف . وسمعت ابنه وهو غلام لا يتجاوز الثانية عشرة ينطق بالفصحى بجية ، (إنه لم يلقن غيرها ، ولم يختلط بأحد يتكلم العامية حتى يفسد عليه لغته ، فقد قال لى والده : إنه لم يرسله إلى أية مدرسة ، بل أحضر له المعلمين من كل صنف ، ولا ينطق والده أمامه إلا باللغة العربية الفصحى أو التركية ، ولا والدته إلا بالتركية . فلذا نشأ فى بيئة سليمة من لهجات العامة .

وهاك مثلا آخر ، وهو أنى التقيت بجماعة من الأتراك المجاورين بالأزهر ، فى نزهة عند قصر النيل ؛ فرأيتهم يتكلمون باللغة العربية الفصحى ، فجاريتهم فى الكلام بها معهم ، ولم ألاحظ عليهم اللحن أو التحريف إلا فى القليل النادر .

وهاك مثلا ثالثاً وهو أنى اجتمعت ببعض الوافدين على الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية ، أيام كان ضيفا على الحكومة المصرية ، وكنت ألقيت قصيدة أمامه ترحيبا بقدومه ، فلما ألفيتهم فى مسجد السيدة زينب بعد صلاة الجمعة جالسين بجوارى ، عرفونى فكلمونى بلسان عربى فصيح ، دل على أنهم أخذوا اللغة الصحيحة تلقينا ، ولم يتلقوا شيئاً من قواعد النحو أو الصرف ، لأنهم من تجار البدو ، فما علينا إلا أن نحذو حذوهم ، ونلقن أبناءنا اللغة الفصحى ونجنبهم العامية ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ، وإذا تعذر هذا على عامة الشعب ؛ فليكن منا طائفة من الأدباء والمعلمين ، يروضون أبناءهم على اللغة الفصحى من مبدأ نشأتهم .

محمد على الدسوقى

(١) هو القاضى يحيى آخر قضاة الدولة العثمانية فى مصر .

خيال بدوي مصنوع

أو

مع الطغرائى فى وصف هاجرة وورد

بقلم

الأستاذ السباعى بيومى

مدرس الأدب بدار العلوم

لم ينس شعراء المدن وقد بعدوا عن البادية وهجيرها ونسوا ما كان من رحلة رواحلها وورود مياهها، بما أصبحوا فيه من نعيم الحضر وخفض عيشه والمتعة بآيات طبيعته وألوان حضارته؛ أقول لم ينس هؤلاء أن تكون لهم جولات بعيدة المدى فيما كان لأسلافهم شعراء البدو من تناول أوصاف البداوة الصرفة. فى أشعار يحكمون فيها الصنعة، ويجيدون المحاكاة، حتى لكأنهم فى البادية نشئوا، وعلى رمالها درجوا، وبسموم هواجرها لفحوا، فنال منهم الصدى منالا، وأوقد فى صدورهم حر الظمأ نارا، فكان لظفرهم بالماء يقعون عليه فى غدير أو بئر — فرح أيما فرح، وابتهاج ليس من فوقه ابتهاج، فهو الظفر بالبقيا على حياة كادت تودى، وروح ما كان أوشكها أن تزهق.

وللطغرائى الأستاذ المنشىء، والشاعر المتصرف، البعيد فى سنيه عن

العهد الجاهلى ، فهو من شعراء العصر العباسى الرابع ، والبعيد فى مسترطنه عن مضارب البداوة وخيام الأعراب، فهو من أهل بغداد — جولة من هذه الجولات فى وصف هاجرة وورد، افتتح بها قصيدة من مدائحه لنظام الملك وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى ووزير ابنه ملكشاه من بعده ، أحسن فيها الوصف وأجاد التصوير ، فأبدع بنسج خياله مالم تبدعه ريشة مصور صناع ، ثم خلص منها إلى ما أراد من مدح خلوصا نجيا ماهرا ، فى حسن سبك وبراعة انتقال .

تصور نفسه وصحبا من صحابه ، على أقتاب الأبل وأكوار الرواحل ، يقطعون هاجرة سجراء حامية ، قد اشتد لهيبها حتى أكل الظل وسود الحصى وأصاب الجنادب — وهى فى الحر تمرح وبه تنشط وله تنشد — بالرمض يحرقها وينكى بها ، بل إنها أصابت بحرها المنعكس ، الشمس وهى منبع الحرارة ومصدر الإحراق ؛ بما أرمضها وآذاها ، فعادت تفزع إلى خيوطها تبعث بها وتدليها ، إلى مافى المذانب والجداول من نطاف المياه وصافياتها ، لتمتاح من ريا هذه وتلك ، ماترتد به إلى الشمس معجلة لتدفع حر الهاجرة عنها، وتنفس عن خناقها ماضيق عليه من لأوائها.

وصف تلك الهاجرة بما وصف ثم عاد يقول ، ولقد كان شأننا مع تلك الهاجرة أن لطمنا بها وجه النهار لطمة سودته ، ونالت من فوقه ناصيته ، غير هيابين سيرا ولا خائفين حرا ، وكأن النهار أراد أن ينتقم لتلك اللطمة منا فأفزعنا وراعنا بالهجوم بنا على ليل منقب الوجه بالسواد ، حالك الظلمة فى مغربه، وسحره شاحب المنظر كريه ، ولكنا اقتحمنا هذا الليل بجرأة المقدام البطل ، فى ظلمته الكثيفة ، حتى على مرتفعات الآكام فى علياتها ، وفى منكبيه القريب أولهما من ذهب الأصيل، وثانيهما من لألاء الفجر.

وما زلنا مقتحمين ذلك بعدسير هاجرة فى سرى ليل ، حتى وردنا سحيرا حيث علقت أيدى الكواكب بالغرب تتعلق به للغروب فى أدبار الليل ، وحين

جذبت جذبة من الشرق رداء الظلمة عن الصبح فتعرى منكبه ، وعنان ستائره فتزحزحت عن بعض منافذ الضوء غياهبه .

يقول ومازلنا كذلك حتى وردنا فيما صورنا من وقت، غديرا يجلو الصفحة مشرق الديباجة كأنه مرءاة الغريبة التى لا ناصح لها فى تفقد زينتها سواها ، فهى دائما كقرص الشمس نصاعة وإشراقا ، لاتزال أنفاس الرياح الغرائب تلتقى بجانبيه ، تستمد منه روحا ينفس عنها مالقيت من القيظ ، لترتد نسيما مروحا بعد أن كانت سموما لا فحا ، ثم هو مستكن حيث يقع فى بطن هضبة عالية تتصيد له السحب الماطرة ، تمده بمائها وتسكب عليه من غيثها، فهو ذراها الشامخة لاتزال ترشف ريق المزن وظلم السحب ، وكلما قبلت من الحيا أفلاذه ألقت بها إلى هذا الغدير ليكنها فى أرجائه الطامية بكثرة مائه ، ويصبها على أحجاره الخضراء لاستدامة امتلائه ، فهو لذلك جم الماء غزيره تقابل منه نبال المطر إذا تساقطت على صفحته ، قوة رد وشدة احتمال فلا تؤثر فيه الاهونا ولا يهتز إلا اهتزازا خفيفا سهلا ، يشكل سطحه بشكل الدرع القوية النسج حتى لكأن هذا السطح مدارج نمال على أديم رمال ، أو هو شجاع بطل ارتدى درعه ليتقى بها تلك النبال .

ثم عاد إلى رواحله التى رحل عليها يقول، إنها كانت عيسا أى إبلا بيضاء فرقنا ببياضها الظلماء ، وكانت فى شدة نحولها وقوة حصافتها وأيدها كأطراف القرون أو أصابع الأمشاط ، وأنها حين أبصرت الغدير وقد أخذ منها الظمأ مأخذه، أقبلت عليه فى حر العطش تجتذب ماءه الصافى دون أن تمس مشافرها سطح الغدير فاذا هو بينها وبين صفحة الماء سيوف بيضاء لامعة ، وإذا هى كأنها تغمد بمشافرها تلك القواضب اللامعة فى أعناقها ، على أن فيها طائفة رأت فى سنا الفجر وقد تلألأ ببياضه وزرقته ، مورد ماء فى زرقته وجمامه ، فارتابت فيه عيونها ، فقمحت عن لجة الغدير الحق وأسرعت مولية طامحة إلى

منبعث الفجر تظنه ماء آخر ترده وتعب منه ، ومازالت فى هذا الشك المريب الذى سحر عيونها فجعلها تظن الفجر مشربا وماهو من المشارب فى شىء، حتى أخذت غزالة السماء تمد بقرنها ليطلع وتهيب بشعاعها أن ينفذ فاذا بالقرن يبدو فى الوجود ناجما ظاهرا وإذا بالشعاع ينفذ وضاء ماتعا كما يبدو وجه نظام الملك بين مواكبه مشرقا مسفرا فتولى الظلمة وينقطع الشك ،

ومن هنا يبدأ الطغرائى فى وصف ممدوحه بعد هذا التخلص الممتع الجميل بما لا شأن لنا به فيما أردنا من موضوع .

وبعد

فهذه مقطعة الطغرائى التى حاولنا فيما أثبتنا آنفا تصوير موضوعها ورسم خيالها ، تتراءى كلوحة لا تبلغ مبلغها كما قلنا ريشة مصور صناع لهذا المنظر البدوى الجميل ، قال : —

وهاجرةٍ سَجْراءَ تأكلُ ظِلَّها مُمَلوَّحةِ المَعْزاءِ رَمْضى الجنادب(١)
ترى الشمسَ فيها وهى تُرسل خَيْطَها
لِتَمْتَاح رِيّا من نِطاف الْمَذَانب(٢)
سَفَعْنا بها وجهَ النهارِ فراعنا بِنُقْبَةِ مُسْوَدِّ المقاديم شاحب(٣)
فلما اعْتَسَفْنا ظلَّ أخضر غاسق على قَمَع الآكامِ جَوْن المناكب(٤)
ورَدْنا سُحيرا بينَ يوم وليلة
وقد عَلَقتْ بالغرب أيدى الكواكب(٥)

---

(١) السجراء الحامية ، وملوحة المعزاء مسودة الأرض ، ورمضى الجنادب محروقتها .

(٢) تمتاح تستقى ، ونطاف المذانب المياه الصافية للجداول .

(٣) سفعنا لطمنا وسودنا ، والنقبة اللون الاسود والمقاديم الأطراف والشاحب المتغير .

(٤) اعتسفنا اقتحمنا ، وقمع الاكام مرتفعات الهضاب .

(٥) كناية عن قرب انتهاء الليل .

على حينَ غرَّتْ مَنكِبَ الصبحِ جَذْبَهُ
من الشرقِ واسترخى عِنانُ الغياهبِ (١)

غديراً كمرآةِ الغريبةِ تلتقى
بصَفْحَيْهِ أنفاسُ الرياحِ الغرائبِ (٢)

بِمُنْعَرَجٍ من رَبْدِ عَيْطاءَ مِتْزَلٍ وقائعُها يَرْشُفْنَ ظَلْمَ السحائبِ (٣)

تُقَبِّلُ أفلاذَ الحيا وتُكِنُّها
بطاميةِ الأرجاءِ خُضْرِ النصائبِ (٤)

إذا ما نِبالُ القَطْرِ تاحتْ له اتَّقى
بِمَوْضونَةٍ حَصْداءَ من كلِّ جانبِ (٥)

بِعِيسٍ كأطرافِ المَدارى نَواحلٍ
فَرَقْنا بها الظَّلْماءَ وُحْفِ الذوائبِ (٦)

نَشَحْنَ به عَذْباً نُقاخاً كأنّما
مَشافِرُها يغمدن بيضَ القَواضِبِ (٧)

رأَيْنَ جِمامَ الماءِ زُرْقاً ومِثْلَها
سَنا الفجرِ فارْتابَتْ عُيونُ الركائبِ (٨)

فكَمْ قامِحٍ عن لُجَّةِ الماءِ طامِحٍ
إلى الفَجْرِ ظَنَّ الفَجْرَ بعضَ المشاربِ (٩)

إلى أنْ بدا قَرْنُ الغَزالةِ ماتعاً
كَوَجْهِ نِظامِ المُلْكِ بينَ المَواكبِ (١٠)

السباعى بيومى

---

(١) الغياهب الظلمات وعنانها زمامها . (٢) الصوحان الجانبان . (٣) الربد الحرف والعيطاء الهضبة ووقائعها حفرات مرتفعاتها . (٤) أفلاذ الحيا قطع المطر ، كناية عن غزارة الماء واستدامته (٥) الموضونة الدرع قوية النسج . (٦) العيس الإبل البيض ، والمدارى أطراف القرون والأمشاط ووحف الذوائب غزيرتها . (٧) نشحن به شربن منه . (٨) جمام الماء جمع جم وهو الكثير الغزير . (٩) القامح المتراجع والطامح الذاهب ، (١٠) يقال متعت الشمس إذا بلغ ضوءها أوج قوته .

مسابقة اللغـــــة العربية

عمل غـــير مفهوم

للأستاذ سيد قطب

المفروض أن فكرة هذه المسابقة قائمة على غرض ترقية مستوى الأساتذة والطلبة ، واللغة العربية ذاتها . والمفروض كذلك أنها تقوى نواحى الضعف التى لمستها الوزارة عن طريق مفتشيها وسواهم فى مدرسى اللغة العربية .

فهل تحقق المسابقة على أساسها الحاضر – هذا الغرض الذى شرعت من أجله ؟ وإذا حققت جانبا منه ، فهل تحقق بقية الجوانب ، ومن أفضل طريق ، وأقصر طريق ؟ وإذا كانت لا تحقق هذا الغرض ، فما الطريق التى يجب أن ننحرف إليها لتحقيقه؟

هذا هو موضوع مقالى اليوم ، مجردا عن جميع الاعتبارات الأخرى ، التى قد تكون كامنة وراء هذه المسابقة أو غير كامنة .

* * *

أستطيع أن أفهم أن هذه المسابقة لم تقرر ارتجالا ، فالارتجال عمل لا يليق فى تصرفات لا تختص بمربى النشء ، وبجو أساتذة وتلاميذ ، وبمستقبل أمة ونفسية جيل .

فلابد إذن أن تكون هناك أبحاث دقيقة ، واقتراحات كثيرة ، غربلت هذه الاقتراحات ، حتى انتهت إلى فكرة المسابقة ، ثم نظر طويلا فى شكل هذه المسابقة ، ووزنت أغراضها ، ثم اختير لها هذا الشكل الأخير .

بمثل هذه الدقة وعلى هذا الأساس أحاول أن أبحث المسألة وفى الوقت متسع للتبديل والتحسين .

أنا لا أميل إلى فكرة الترفع عن دخول المسابقات، وانتقاد المبدأ فى ذاته، وما أمسكنى عن التقدم إليها فى الماضى أو التفكير فى التقدم إليها مستقبلا مثل هذه الفكرة ، بل أنا أميل إلى أن تكون المسابقات هى الوسيلة الأولى لكل تعيين وكل ترقية فى جميع وظائف الدولة ، حرصا على العدالة ، وقطعا للشكاية وحفزا للهمم وتجديدا للثقافة .

إنما أمسكنى ويمسك كثيرين من زملائى الممتازين فى بيئتهم الخاصة وفى الوسط العلمى والأدبى العام ، أننا نرى المسابقة تؤدى بنا إلى غاية ليست جديرة بالزمن الذى ينفق فيها ، ولا ترتفع بمستوانا العقلى ولا المادى شيئا .

فهل صحيح أولا أن النقل من مرحلة التعليم الابتدائى إلى مرحلة التعليم الثانوى ترقية تستدعى النجاح فى مسابقة ؟ وهل فى هذا النقل ميزة أدبية أو مادية ؟

وهل صحيح ثانيا : أن مواد الاختبار فى هذه المسابقة خليقة أن ترتقى بمستوى المدرس ، وتجعله جديرا بالترقية ، إذا ثبت أن فى النقل إلى الثانوى رقيا ؟ وجديرة بأن تعطينا المدرس الممتاز الذى نريده ؟

فأما الجواب عن السؤال الأول فبالنفى قطعا ، وليس فى الثانوى إلا العناء والجد المضاعف الذى ليس له مقابل من المال . والمال عصب الحياة ، ومذلل الجهد ، والعوض القريب عن الضنى الذى يعانيه المدرس المغبون .

أما المجد الأدبى فى الثانوى فلن يهفو إليه إلا من لا مجد لهم فى حياتهم العادية ، أى الذين لا امتياز لهم بين إخوانهم ولا بين الناس ، وهؤلاء طبعا لن يرتقوا بالتعليم . أما الذين لهم شىء من المجد الأدبى والعلمى نتيجة لتفوقهم فلن تهفو نفوسهم إلى هذا المجد الضئيل فى الثانوى . وهم لهذا لا يتقدمون

للمسابقة ، فيضيع غرض الوزارة من اختيار أصلح العناصر لهذا التعليم .

وأما الجواب عن السؤال الثانى فيتطلب نظرا أوسع وبحثا أوفى .

أول ما يجبه الناظر فى مواد هذه المسابقة أن الفكرة متجهة إلى اختبار المدرسين فى معلوماتهم اللغوية وفى تاريخ آداب اللغة العربية . وما عدا هذا فهو هوامش للمسابقة غير مقصودة . وإن ظن أنه روعى فى مسابقة هذا العام .

وهذا التوجيه يكون مفهوما فى حالة واحدة ، وهى حالة وقوف الوزارة عن طريق مفتشيها وسواهم على ضعف المدرسين فى مادتهم وعدم استطاعتهم الإحاطة بالمعلومات التى كلفوا تدريسها لتلاميذهم .

ولتحقيق هذا الغرض أفهم أن توضع إحصائية عن خمس سنوات مثلا من تقارير المفتشين ، فيثبت منها أن نحو ٥٠٪ من مجموعة المدرسين فى الثانوى ضعاف المادة ناقصوا المعلومات المدرسية .

ولكننى أستطيع أن أعلم أن مثل هذا البحث لم يلتفت إليه ، وأعلم كذلك أن ضعف المادة لم يكن مبعث شكوى أحد من المفتشين إلا نادرا بين عشرات المدرسين .

فإذا ثبت هذا فقد سقط الأساس الذى قامت عليه المسابقة فى وضعها .

وقد أفهم أن تكون هناك شكوى من عدم متابعة المدرسين للقراءة وعدم وقوفهم على آخر الخطوات فى نظريات التربية والتعليم ، وفى الأدب والآراء الأدبية ، وفى المعلومات العامة الحديثة المتناثرة حول الاجتماع والسياسة والكشوف ؛ التى تجعل من المدرس إنسانا حيا يعيش فى عصره .

كما أفهم أن تكون هناك شكوى من عقليات المدرسين — وفرق بين المعلومات والعقلية العامة — نتيجة لإهمال الاطلاع ، أو لعدم النضوج الذهنى والشخصى .

وسبيلنا إلى تقوية هذا الضعف وعلاجه ، وإلى اختيار أصلح العقليات والشخصيات ، وأدومها للاطلاع والثقافة ، ليس هو السبيل الذى تختطه هذه المسابقة فى وضعها الحاضر . إذ قصارى ما تعطينا : مدرس قرأ بضعة كتب ، وحصل بضع معلومات ، وكان من السهل علينا أن نجده فى المتخرجين من دار العلوم إذا راجعنا درجاتهم فى امتحان الدبلوم فى المواد المختلفة .

والثمن الذى نؤديه لاختيار هذا المدرس بالمسابقة ثمن باهظ يعتبر إسرافا وتضحية لا مقابل لها . فنحن سنكلف عددا من المدرسين فى القسم الابتدائى أن يزحموا وقتهم بالمطالعة المملة ، ويبذلوا جهدهم فى المراجعة التافهة ، ويقصروا إلى حد قليل أو كثير — فى واجبهم لتلاميذهم ، ونهبط بمستوى الجهد الذى يبذلونه للتعليم الابتدائى . ثم لا نجنى مقابل هذا كله إلا مدرسا من معدن رخيص ، كنا نستطيع أن نجده فى كل مكان ، وبدون امتحان .

* * *

وحتى لا يؤخذ على أنى أهدم ولا أبنى ، فإنى أدل على الطريق الذى يضمن اختيار أنقى العناصر ، وأحسن العقليات ، وأكمل الشخصيات . فأقترح .

أولا : أن يحذف من المسابقة كل ما يرمى إلى استعادة دراسة الكتب النحوية واللغوية وكتب دراسة تاريخ الأدب التى سبقت دراستها هى أو نظائرها فى مدرسة دار العلوم ، لأن هذا عبث ضائع ، وجهد مكرور .

ثانيا : أن تضمن مواد الاختبار ما يكفل استدامة المدرس للاطلاع على الحركات الأدبية والعلمية والاجتماعية والدراسات النفسية فى مصر خاصة والعالم عامة ، واختبار أثر هذا الاطلاع فى عقليته العامة وفى تكوين الشخصية المثقفة .

ثالثا : (وهو أهم مايضمن لنا اختبار العقلية وثمرة الثقافة) أن تشتمل المسابقة على تقديم رسالة فى فن من فنون اللغة العربية المختلفة ، يناقش فيها المدرس ، فتتبين ثمرة اطلاعه ونوع عقليته ، واتجاهه الذهنى . وعلى أساس هذا الاتجاه يمكن أن نختار له المواد التى يدرسها فى المدارس الثانوية .

ولكن هذا الاقتراح لايكون كاملا ، ولا يكون هناك مايغرى الممتازين حقيقة من المدرسين بالإقدام عليه ، إلا إذا انتهى بهم إلى وضع أدبى ومادى خير من وضعهم الحالى . وهم كما قدمت لا يعتبرون النقل إلى التعليم الثانوى فى ذاته ميزة تهفو إليها نفوسهم . بل أنا أعلم أن كثيراً منهم يعتبره غرما على وقتهم وجهدهم ، واطلاعهم الحر الذى تألفه نفوسهم . وإن بعضهم ليرفض — لو استطاع — أن ينتقل إلى التعليم الثانوى حتى بدون مسابقة ولا اختبار، نظرا لهذه الاعتبارات .

فتكملة لاقتراحى أرى أن تكون ثمرة قبول الرسالة منح صاحبها درجة علمية أرقى من دبلوم دار العلوم ، تقابلها درجة مالية مقررة لهذه الدرجة العلمية فى ذاتها ، بغض النظر عن نوع التعليم الذى يقوم به المدرس بعد ذلك ابتدائيا أو ثانويا أو عاليا . وإن بعض الممتازين ليسلم جدلا بأن يمنح هذه الدرجة وتلك ثم يقوم بعمله فى المدارس الأولية ورياض الأطفال ، فلا تعنيه هذه الشكليات الجوفاء . والذين ينظرون هذه النظرة هم الذين نستطيع الاعتماد عليهم فى تحقيق مثالنا العليا بين أوساط المعلمين .

٭ ٭ ٭

وبعد ، فأحب أن أنظر إلى هذا المشروع من زاويتين أخريين

فأنا أفرض أن المسابقة على هذا الوضع أو ذاك قد حققت لنا معرفة أصلح العناصر في أوساط المدرسين ، فهل من المصلحة أن نختار هذه العناصر

كلها للتعليم الثانوى ، وألا ندع المدارس الابتدائية إلا العاجزين عن اجتياز الاختبار .

وكيف تكون الحال فى المدارس الابتدائية حين تحرم من كل عنصر صالح ، وحين يشعر المدرسون ونظارهم وتلاميذهم كذلك أن فى هذه المدارس نفاية المدرسين العجزة ، وحين ينظر كل مدرس بالمدرسة الابتدائية إلى مدة وجوده بها نظرة المستعد لمبارحتها الذى لا يعول على إجادة عمله بها فى ترقية أو تحسين حال ، لأن اعتماده كله على اجتياز المسابقة ؟

أهذه حالة تصلح معها الدراسة فى المدارس الابتدائية ؟ وإذا لم تصلح هنا فكيف ينتظر لها الصلاح فى المدارس الثانوية ، وهذه تبنى على أساس من تلك ؟

هنا تبرز أهمية الاقتراح الذى أسلفته ، وهو ألا يكون الغرض من اجتياز المسابقة على النظام الذى أوضحته هو النقل إلى الثانوى ، بل ترقيه مستوى المدرس علميا وماديا على أن يسند إليه عمل فى أية مرحلة من مراحل التعليم . وأنا أفرض مرة أخرى أن المسابقة على هذا الوضع أو ذاك قد حققت لنا اختيار الأصلح ، فماذا يضمن لنا استمرار اطلاعه فيما بعد وقد وصل إلى الغاية التى يبتغيها ؟ .

هنا كذلك تبرز أهمية اقتراحى السابق عن طريق المسابقة لأنها لن تحقق لنا معلومات محفوظة أو مفهومة ولكنها تحقق لنا شخصية مثقفة وعقلية ممتازة ، تحمل فى ذاتها ضمان الدأب والمثابرة على الاطلاع حبا فى المطالعة لا رغبة فى تحقيق غاية قريبة .

ومع هذا فيجب تنظيم محاضرات عامة فى أشهر الصيف يقوم بإلقائها كبار الأساتذة فى مختلف نواحي النشاط الفكرى ، تقف المدرسين على آخر

ماوصلت إليه الأفكار فى العالم ، ويكون للدأب على حضور هذه المحاضرات نصيب فى تقدير المدرس والنظر إليه

* * *

بمثل هذا التفكير يصح أن تساس شئون منشئ الجيل ، وبعدطول الروية والأناة ، وحسن الاختيار والتوجيه ، فالارتجال قد يصلح لكل شأن ، إلا لشئون المدرسين . ؟

سيد قطب

على ضفاف الغدير

للأستاذ محمود غنيم

جنبانى خليج بحر الروم وقفا بى على ضفاف الغدير
هاهنا الغيد فى ائتلاق النجوم حمن حول المياه مثل الطيور

***

هن أقبلن باسمات الثغور ثم شمرن كل ذيل عفيف
يالها من طهارة فى سفور جمع الطهر كله فى الريف

***

قد كشفن الذيول عن سيقان أرأيت الدمى وهن عوارى
وتقدمن فى خطى متوان يترجحن خيفة التيار

***

رفعت ذيل حالك فى السواد عن حواشى مورّد اللون دام
فإذا طىّ هـــذه الأبراد.... شفق لاح تحت جنح الظلام

***

فإذا مارأيت رأى العين منظر السوق غض فى الأمواج
قلت واد أديمه من لجين نبتت فيه غابة من عاج

***

ركعت كل غادة هيفاء كركوع البتول فى المحراب
فرأت ظل وجهها فى الماء ورأى الماء فيه ظل العباب

رُمن غمس الجرار فى الآذى فأبى غمسها دلالا وتيها
فإذا ماانتصرن نصر الكمى ضحكت كل جرة ملء فيها

٭ ٭ ٭

ثم أدبرن يحتملن الجـــرارا تنثنى من تحتها الأجيـــاد . . .
مادلالا تميس تلك العـــذارى كل لدن تؤوده منـــآد . . .

٭ ٭ ٭

رفعت عند ســيرها باليمين ذيل ضافٍ مهفهف معشـــار
واتقت بالشمال فوق الجبين غزوات الشعاع للأبصـــار

٭ ٭ ٭

سرن سير المجد عنــد الورود فإذا ماصـــدرن سرن اتئادا
أرأيت الظـــليم عنـد الشرود أو رأيت القطاة إذ تتهـــادى

٭ ٭ ٭

وعجبنا لحـــاملات الجرار لحن فوق الرءوس كالأبراج
كيف تبدو فى عزمة الجبار ذات جسم كالزئبق الرجراج

٭ ٭ ٭

تلك سوق مصقولة فى العراء لم تمس فى جوارب من حرير
ورءوس خلقن للأعبـــاء لارءوس ألفن قص الشعـــور

٭ ٭ ٭

ماترهلن فى ظـــلام الخدور أو ظلـــين الأديم بالألوان
بل جرت في الوجوه جرى النمير حمرة الشمس صبغـــة الرحمن

سائلانى عن أهل تلك المغانى إن هذا الأديم مسقط رأسى
لقنتنى طيـوره ألحــانى وسقــانى هواه أول كأس

***

مسرح قد صعدته منـــذ حين وعليه لعبت دور الغـــلام
لك ياريف زفرتى وحنينى لك عندى تقديس بيت حرام

محمود غنيم

مدرسة فؤاد الأول

النقد اللغوى

- ٢ -

للأستاذ على السباعى

ذكرت فى العدد الأول من هذه السنة مايحتاج إليه الناقد اللغوى من اطلاع وقراءة واستقصاء فى كتب اللغة والأدب قبل التخطىء والتصويب، وذكرت عدة كلمات لم ترد فى المعاجم فأنكرها الناقدون مع أنها صحيحة بأسناد قوية ونصوص لاتقبل تأويلا، منها كلمة عِمَّة، التحق، بواسل جمع باسل، زاد عن، ونذكر هنا تتمة لتلك الكلمات أخرى برقم مسلسل:

٥ — **عديد**: يرى بعض النقدة أن كلمة عديد بمعنى كثير لم ترد ويستبدلون بها عدة ويقولون إنما وردت عديد بمعنى العدد أو المعدود ويستدلون على ذلك بقول رؤبة:

عددت قومى كعديد الطيس　　إذ ذهب القوم الكرام ليسى

وبقول مايروى للسموءل بن عاديا:

تعيرنا أنا قليـــل عديدنا　　فقلت لها إن الكرام قليل

ولكن ذكر الراغب الأصفهانى فى المفردات (يقال شىء معدود ومحصور للقليل مقابلة لما لايحصى نحو المشار إليه بغير حساب، وعلى هذا، إلا أياما معدودة، أى قليلة لأنهم قالوا نعذب الأيام التى فيها عبدنا العجل، ويقال على الضد من ذلك جيش عديد كثير وإنهم لذو عدد أى هم بحيث يجب أن يعدوا

كثرة) وانفراد الراغب بهذا دون غيره من اللغويين قد يريب النقاد ، ولكن عنترة يقول من قصيدة :

فانهض لأخذ الثأر غير مقصر حتى نبيد من العداة عديدها (١)

والسياق هنا يقتضى أن تكون الكلمة بمعنى الكثير لأنه محل الفخر وموطن التباهى لا لإبادة أى عدد كان قل أو كثر .

وتقول الخنساء :

فأقسم لو بقيت لكنت فينا عديدا لا يكاثر بالعديد (٢)

فالعديد الأول بمعنى السيد المعدود ، والثانى بمعنى الكثير ، ولا يكاثر بمعنى لا يغالب ، ونفى المغالبة بالكثير هى المقصودة ، لأن المغالبة بواحد لا تستوجب تباهيا وافتخارا .

٦ — تَبَدَّى : أنكر بعض الناس تبدى بمعنى ظهر لعدم ورود الفعل فى المعاجم وخطئوا شاعر النيل المرحوم حافظ بك إبراهيم حين قال فى الشمس :

لاح منها حاجب للناظرين فنسوا بالليل وضاح الجبين
ومحت آيتها آيته وتبدت فتنة للعالمين

ولكن الفعل ورد بهذا المعنى فى شعر عمرو بن معدى كرب الزُّبيدى فى قصيدته التى مطلعها :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن رويت بردا

إلى أن قال :

وبدت لميسُ كأنها بدر السماء إذا تبدَّى (٣)

وكتب سعد بن مُطَرِّف المجاشعى إلى ابنة عم لها يهواها .

(١) شعراء النصرانية ص ٨٣١ (٢) ديوان الخنساء ص ٦٣ طبعة بيروت (٣) لميس اسم امرأة برزت كاشفة عن وجهها إما للتشبيه بالأمة لتأمن السبى ، وإما لما داخلها من الفزع والرعب .

حاش الله أن أكون خليا من هواه وقد تقطعتُ وجْـدا
كيف لا كيف عن هواه سلوى وهو شمس الضحا إذا ماتبدَّى (١)

فأنت ترى أن الفعل بمعنى ظهر عند الشاعرين واضح ،ولم تذكر المعاجم تبدى إلا بمعنى أقام بالبادية ، وهو تقصير سببه اتساع اللغة وتفرق مظانها .

٧ ـ ساهم : فى المعاجم ساهم بمعنى قارع ،وأنكر الباحثون المساهمة بمعنى المشاركة لأنها لم ترد بهذا المعنى ، وعندى أنه لامانع من استعمال الفعل بمعنى المشاركة،لأن الذى يقارع غيره له فى المقارعة نصيب بأسهم يشارك بها فيها وقد استعملة أرباب المعاجم بهذا المعنى،فصاحب النهاية لابن الأثير يذكر فى مادة أسا (والمواساة المشاركة والمساهمة فى المعاش والرزق وأصلها الهمزة فقلبت واوا تخفيفا) وقد نقل اللسان هذا بنصه وفصه فى مادة أسا أيضا وكذلك فعل صاحب تاج العروس، كما استعمل صاحب اللسان فى مقدمة كتابه هذه الكلمة بمعنى المشاركة فقال (فاستخرت الله سبحانه وتعالى فى جمع هذا الكتاب المبارك الذى لايساهم فى سعة فضله ولايشارك) ويقول إبراهيم بن العباس الصولى حين وهب له عبد الله أخوه ثلث ماله ووهب لأخته الثلث الآخر وأبقى له الثلث فسار مساويا لهما فى الحال:

ولكن عبـد الله لما حوى الغنى وصار له من بين إخوته مالُ
رأى خُـلَّة منهم تسد بماله فساهمهم حتى استوت بهم الحالُ (٢)

ولاريب أن السياق هنا لايتفق مع المقارعة وإنما يتلاءم مع المشاركة أو المقاسمة ولم يعبه عائب مع أن النقاد أخذوا عليه فى هذا الشعر وغيره بدءه بأداة الاستدرك ولم يسبقه مايستدرك عليه ، ودافع عنه المدافعون بأنه كان يتخير شعره فيُسقط رَذْله ويحذف ضعيفه فلا يبقى له إلا اليسيرُ يُرى فيه هذا البدء المعيب ولم ير النقاد بأسا أو فسادا فى كلمة ساهم ولو رأوا ماسكتوا ثم

١ ـــ الأمالى الجزء الأول ص ٢١٥ ، ٢ ـــ الأغانى ص ٥٠ من الجزء العاشر .

أليست المقاسمة مشاركة ؟ ومادام قد ورد التساهم بمعنى التقاسم فى قول الحكم ابن معمر الخضرى وهو شاعر أموى عاصر ابن ميادة وكان أسن منه .

فوالله ما أدرى أزيدت ملاحة وحسنا على النسوان أم ليس لى عقلُ

فساهم ثوباها فى الدرع غادة وفى المرط لغاوان ردفهما عبل[1]

تساهم هنا تقاسم . ويقول الخطيب التبريزى ص ١٥٣ من الجزء الثالث من شرح ديوان الحماسة : انقسم جسم هذه المرأة بين درعها وإزارها ، ففى الدرع بدن ناعم وخصر دقيق ، وفى مرطها فخذان غليظتان عليهما ردف ضخم ، والدرع الثوب الصغير تلبسه الجارية فى بيتها ، والمرط كساء يؤتزر به ، والغادة الفتاة الناعمة اللينة ، ويروى بدل غادة رأدة ، والرأدة الشابة الحسنة أقول ما دام قد ورد التساهم بمعنى التقاسم ، واستعمل اللغويون المساهمة بمعنى المشاركة ، فلا داعى لنخطىء من يستعملها ، ولننزلها منزلة أخواتها فى المعنى ، وإن فات أرباب المعاجم ذكر هذا فى مادة سهم ، فكم كلمة فاتتهم وندت عن تدوينهم

٨ ـ صارح : أنكر الباحثون الفعل صارح متعديا لعدم وروده بالمعاجم ، وارتابت مجلة المجمع فى عددها الأول بقول البستانى فى (محيط المحيط) وصارحه مصارحة وصراحا وصراحا جاهره اه وأشارت بأن يستبدل به الكتاب الفعل جاهر فيقولون جاهرهم بالأمر وأما قولهم أصارحك كذا أو أصارحك بكذا فلا وجه له من الصحة ، ولكن الفعل ورد متعديا فى قصيدة أبى طالب اللامية التى قالها متعوذا فيها بحرم مكة وبمكانه منها ، وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم فى ذلك من شعره أنه غير مسلم رسول الله ﷺ لا تاركه لشىء أبداً حتى يهلك دونه ، وتجد القصيدة

١ الاغانى ص ٢٨٦ من الجزء الثانى

مشروحة فى خزانة الأدب ص ٥٢ من الجزء الثانى المطبوع بالمطبعه السلفية وفى المواهب الفتحية ص ١٤٨ من الجزء الأول وفى سيرة ابن هشام ص ٢٩١ من الجزء الأول طبعة الحلبي ومطالعها

خليلى ما أذنى لأول عاذل بصغواء فى حق ولا عند باطل

إلى أن قال :

وقد صارحونا بالعداوة والأذى وقد طاوعوا أمر العدو المزايل

وقد حالفوا قوما علينا أظنة يعضون غيظا خلفنا بالانامل

قال البغدادى مؤلف الخزانة : صارحونا كاشفونا بالعداوة صريحا والصراحة وإن كانت لازمة لكنها لما نقلت إلى باب المفاعلة تعدت،وكذلك قال فى حالف فى البيت بعده،ولا ريب أن مما يصير اللازم متعديا دلالته على المفاعلة،وقد مثل الأشمونى بالأفعال جالست زيدا وماشيته وسايرته فى جلس زيد ومشى وسار،فأنت ترى أن الفعل صارح متعديا صحيح ولا شيء على من يستعمله وإن لم يدونه اللغويون فى معاجمهم

٩ ـ كسول : توهم بعض الذين قرءوا مادة كسل فى القاموس واللسان والأساس أن لفظ كسول خاص بالمؤنث ولا يصح وصف المذكر به لأن القاموس قال (وهى كسل وكسلانة وكسول ومكسال وهما ـ كسول ومكسال ـ أيضا نعت للجارية المنعمة التى لا تكاد تبرح من مجلسها مدح اه) وإنما كان هذا مدحا لأن أجمل النساء عندهم المنعمة الممتلئة الجسم التى لا تحتاج للعمل ولذلك نعتها الشعراء بمكسال ونئوم الضحا،وهكذا من الصفات التى تبعد بها عن النشاط والكد،أما فى زمننا فالأمر يقتضى خلاف ذلك . وقال اللسان : (والانثى كسلة وكسلى وكسلانة وكسول ومكسال) وقال

الأساس : (وامرأة كسلى وهى مكسال وكسول وفسر ذلك بقوله رزان) وظاهر هذه النصوص جميعها يحمل على اختصاص المرأة بلفظ كسول ويدعو بعض اللغويين إلى محوها إذا استعملها الناشئون من الكتاب صفة للمذكر ولكن اللسان ذكر فى مادة زمل والزمْل الكسلان والزُّمَل والزُّمَّل والزُّمَّيل والزُّمَيْلة والزُّمَّال بمعنى الضعيف الجبان قال أحَيْحة بن الجُلاح بن حُرَيْش سيد الأوس فى الجاهلية

ولا وأبيك ما يغنى غنائى من الفتيان زمَّيل كسول

ويظهر أنه قال هذا البيت لزوجه سلمى بنت عمرو من بنى النجار،وكانت لا تنكح الرجال لشرفها فى قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها إذا كرهت رجلا فارقته ، وقد كرهت أحيحة لشحه ففارقته بعد أن أعقبت منه عمرا وبه كان يكنى،وتزوجت من هاشم بن عبد مناف فى إحدى قدماته إلى المدينة فأعقبت منه عبد المطلب (١)

فأنت ترى أن أحيحة استعمل لفظ كسول للمذكر ، ولو تذكر صاحب اللسان ما كتبه فى مادة زمل لزاد فى مادة كسل - وهى بعدها - أن كسولا أيضا للمذكر ، ولكنه لم يفعل وأغفل صاحب التاج ذلك أيضا فى مستدركاته والعصمة لله وحده

١٠ - بشوش . فى المعاجم بش الرجل يبش أقبل وهو يضحك ويلقاك لقاء جميلا ، وعنده بشاشة أى طلاقة وجه وبشر،والفعل لازم لا تقاس منه صيغ المبالغة،فما جاء منه يقصر على السماع وقد ورد فى المعاجم رجل هش

١ السيرة طبعة الحلبى ص ١٤٥ من الجزء الاول ، والخزانة طبعة السلفية ص ٣٢٦ وما بعدها من الجزء الاول

بشٌ ، وهاش باش ، وبشّاش أى طلق الوجه ، وورد البشيش بمعنى البشاشة فقالوا فلان مضيء البشيش أى البشاشة،والبشيش أيضا الوجه ولم يرد فى واحد منها بشوش،ولكن عنترةالعبسى يقول من قصيدة فى شعراء النصرانية ص٨٤٤

ضحكت عبيلة إذ رأتنى عاريا خلق القميص وساعدى مخدوش

ألقى صدور الخيل وهى عوابس وأنا ضحوك نحوها وبشوش

فلا شيء على من يستعمل كلمة بشوش بعدهذا النص، وقد جاءت فعول من الأفعال المقابلة لهذا وهى لازمة أيضا ، فقيل عبوس وقطوب من عبس وقطب ؟

يتبع على السباعى

الى النفوس الحائرة :

رحـــــــلة طائر [1]

- ٢ -

للأستاذ فايد العمروسى

٥ - وَحدَةٌ و تأمل

صَاحَ فى الجو كى يَرى فيه إلفاً ضَلَّ فى الليل نجوةَ الأصحابِ
فتَرَدَّى كما تردَّى أسيراً وتخفَّتْ له طريقُ الإياب
لم يجاوبه غيرُ رجِع صداهُ رنَّ فيما يُروعه من هِضَاب
وهُنَا ، قطَّع الرجاءَ يئُوساً وسَرَى فى مذلة واكتئاب
إن فى الكون — لو علمت — خفايا بات فيها مُشتتَ الألباب
غرّه أن يطيرَ فيه طليقا كانَ بالروض أمْ بقفر اليباب
فتبدّتْ لعينه قوةُ الكو نِ . وأمسى لعجزه فى متاب
بعدَ ما أنهك السُّرى من قُواه وتناهتْ به صنوفُ العذاب

٭٭٭

(١) أنظر الجزء الأول من الملحمة فى العدد الفائت .

(٢) كتبت هذه الملحمة فى سبتمبر سنة ١٩٣٢ .

أىُّ شىء يرومه بعد هذا ... أيُرجّى نهوضه وهو كابى؟
كيف يرجو النّهوضَ والضّعف بادٍ ... وعظام الجناح صرعى الضّراب
أو يودّ الوصول ، والإلف ناءٍ ... وسبيلُ الغريب جم الصعاب
وأمانى الظلام ، تعتصر القلـ ... ـبَ حنيناً ، إلى الليالى العِذاب
تُثلج النفسَ لحظة ثم تمضى ... بارقات كومضة من سراب
هكذا الطيرُ ، كان أشقى فؤاداً ... لم يُمتّع بآمنٍ ، أو مآب

٦ - أمـــل

وتبدّى له الخلاءُ وحيداً ... دائم الصمت مطرقا فى اضطراب
كلّ شىء بجوفه مستكينٌ ... خاشعُ الطرف فى سواد الإهاب
وتراءى له شهابُ الدياجى ... مشعلاً نارهُ بجوف الضباب
فاستشف المغيبَ فى لهب النّجـ ... ـم ، وضوء السما ، وبرق الشهاب
أبرقتْ صفحةُ السماء وماجتْ ... بضياء أنارَ وجهَ السحاب
بعثت فيه خفقةً من رجاء ... شجّع الطيرَ فى السُّرى والذّهاب
فانبرى فى سُراه يصطكّ خفقاً ... فى حشاه ، وجوفه فى التهاب!

٧ - أليفته!

بين هذا الأسى ومرّ البعاد ... عاودَ الطيرَ ذكرياتُ الفؤاد
ذكر الطيرَ عيشةً قد قضاها ... بين نُعمى المُنى وصفو الوداد
هو يأسى ، وإلفُه فى عناء ... تجرعُ الهمّ فوقَ شوكِ القتاد
تُنشد الإلفَ فى النهار وتُمسى ... ترقبُ الطيفَ فى هدوء الرقاد
كلما هبّت الرياحُ أحسّتْ ... فى حفيف الرياح قربَ البعاد
أو تغنّى على الغصون حمامٌ ... سمعتْ فى الغناء صوت المراد
لم يكن ذاك غيرَها جسّ نفس ... قد سقاها الفراقُ كأسَ السُّهاد

٨ – فى سمـــاء الريف

ثم طاحتْ به يدُ النأْيِ حتى   طاف فى الجو كالغريب المهاجرْ
طاف فوق الحزُونِ والسهلِ فى الأر   ض، وفوق الرُّبا، وفوق المغاور
لا يرى مرشدا بها لِهُداهُ   أو بصيصاً من الرجاء المسامر
غير تلك القرى، وهذى النجوع   قد تراءتْ بصمتها كالمقابر
ضمَّها الليلُ فى ثنايا دُجاه   ضمَّةَ الغالبِ المذِلِّ القاهر
قاتماتٌ كأنَّها قطع اللـيـ   ـلِ نأتْ عنه، شاردات نوافرْ
ودبيبُ الفَناء يسترقُ الخَطْـ   ـوَ، ويُفْشى مُخَبَّئاتِ السرائر
هـذه قرية حوَتْ ساكنيها   فتَوارَوْا بجوفها كالضمائر
حَضَنَتْها مزارعٌ وحقولٌ   حافظاتٌ لساكنيها سواهر
ورحيق الكروم ينفح فيها   نفحات من العبيق عَواطر
وطلوعُ النخيل تنشُر فى الجـ   ـوِّ أريجاً كنَفْحِ طيب الحرائر
وكأنَّ الهدوءَ حولَ رُباها   جنَّةُ الخلد للتقى الصابر

٩ - حول القرية

بين هذا الهدوءِ والصمت يسرى   صوتُ شاة من القطيع رَضيع
فحنتْ أمُّها عليها وهبَّت   من لذيذ الكرى وصمت الهجوع
أيقظتْ أختَها لتروى صَداها   فى بكاء وصرخةِ الترجيع
وخُوار العجُول فى الحىِّ يسرى   إذْ أحسَّت لدى المقامِ بجوع
وصهيلُ الخيولِ يسرى صداه   فيجوبُ الرُّبوعَ تلوَ الرُّبوع
ورُغاء النياق يبعث فى النفـ   ـسِ حنينا يدِبُّ بَين الضلوع
ذا ضجيجُ القرى لدَى الليل والإظـ   ـلامُ فيها مخيِّمٌ فى خشوع
غيرَ ضوء من الخلالِ سقيم   يُنْجَلى من وراء ستر منيع

أو سنا موقد تراءى بعيداً بين مرعى الرعاة حول النجوع
تصطلى حوله الجموع السهارى تحت قطر الندى بجوف الهزيع
وهو قطر تشع منه حياة لحياة الأزهار صوب الربيع

١٠ – على الجدول

قطع الطير هذه الأرض ليلاً ليس يدرى ذهابه من إيابه
ليس يدرى سوى التحير فيها والضنى والأسى، ومر اغترابه
وبعيدا عن القرى وقف الطير شريدا ، مستسلما لعذابه
فوق غصن من الغصون تدلى فى غدير . كمنتش بشرابه
أسلم الفكر للهدوء وأخفى رأسه تحت ريشه وإهابه
كيتيم طوى بجوف الليالى يستر البؤس تحت بالى ثيابه
أو طريد عدت عليه العوادى لم يمتع بآمل فى شبابه

١١ – بين الحقول

هبط الطير بين زرع نضير طله الليل بالندى المقرور
حالما كالجفون أطبقها النو م ، فطافت بحلمها المستور
شاخصات لبعضها كضرير يتدانى بوجهه لضرير
هامسات بسرها فى هدوء همسة الكشف عن خفايا الضمير
عالم كالصغار حسا وقلبا ليس تدرى الأذى وبغى الشرور
لقى الطير فى حماها أمانا فترامى بجنبها فى فتور
يرهف السمع للخشاش على الأر ض ، يوالى دبيبه كالصرير
وصفير النقيق تحت مياه نائمات بجفوف كل غدير
ترسل الشدو فى الجداول ليلاً منشدا لحنه كلحن الخرير
حسب الطير ، أن رجع صداه هو لحن الردى وصمت القبور

١٢ – ديك على جدار

هبّ ديك من نومه ، ووقف على جدار من دور القرية ، وصاح .... !

فخاطبه الطائر :

إيه ياديك ..! مابنفسك حتى تَهتِك الليل بالصياح نحيبا ؟
أدهاك الأسى ومر التنائى عن ديارٍ فبِتَّ عنها غريبا
بتّ تشكو العيال والإلف ليلاً وصباحاً ، وضحوة وغروبا
أم ضللت الهدى ؟ فصحتَ تُرجىّ ذلك العطفَ والحنان الرطيبا
دارك الحائط الذى أنت فيه قمتَ تشدو مُنَعّما وطروبا
أمسك الصوتَ يارفيق اللّيالى لست مثلى على الوجود كئيبا

فخاطبه الديك

أيها الطير إنّ دارى فسيح رَحبُها ، فاقرُبْ وَأْقبل اليّا
اْهبط الدار ، والتجىء لحماها ستَرانى على الإخاء وفيا
عندىَ الحبُّ ، فالتهمْ منه واشربْ من قراح المياه عذبا هنيّا
ذى عروشٌ من الكروم بدارى مورقات ، ترفّ ظلاً وريّا
كل شىء لديك حلٌّ مباحٌ إنْ ترمْه ، تجدْه سهلا رخيّا
فلك الدوح والحقول . وأزها رُ رياضٍ تفيضُ نفحا ذكيا
طُفْ بها ماتشاء ، وابعث نواحا وحنينا ، وغنّ لحنا نديّا
إننى أكرمُ الغريب بأرضى وأرانى له خليلاً صفيا
إنما تكرمُ النفوس نفوسٌ مثلُها عزةً وحِسّاً أبيّا

هبطت قوى الطائر ، وخفتت أنفاسه ، فاستكان فى ناحية من الخلاء ، فإذا الرياح الخافتة ، تحمل إليه خفقات الشاعر المتجول : فخاطبه الطائر :

من تُرى ذلك المغنّى بليلٍ يبعث الشّعر صارخاً بالشكاةِ
أترى ضلَّ فى المجاهيل مثلى واجتوته ، فخار فى الظلمات

أم هو الشاعر الذى طاف فى اللّـ يل ، كنفح الزهور فى الجنات
أو كروحٍ مهوّم هبط الأر ض ليمحو مواطن الشبهات
أنت ياشاعرى ؟ إذن أنت طيفٌ ملهم الحسّ ، طاهر الخطرات
تستشف النفوس فيما تعانى وتحسّ القلوب فى الخفقات
هات ياشاعرى حديثا من القلـ ب . وأيقظ كوامن الذكريات
حدث النفس عن حياة أراها كحياة الوحوش فى الفلوات
ليس فيها لذى الشعور نصيب غير مُرّ الخطوب والنائبات
هكذا العيش ؟ إن يكن هو هذا فحرامٌ علىّ عيش الحياة

لها بقية ستنشر تباعا

فايد العمروسى

البطـــــــــل

للشاعر الأستاذ عبد العزيز محمد خليل

رواية يمثلها طلاب المدارس الثانوية « ذات فصول »

الفصل الأول

جند فى طريقهم الى الميدان ينشدون ، نظارة متفرجون ومن بينهم
اثنان فى ناحية ترمز لهما مصطفى وسعيد

النشيد : أعدوا السلاح ليوم الكفاح فقد حان موعـــده المنتظر
ومصر تناديكم فانهضوا وكونوا لهـــا كنزها المدخر

...

إلى المجـــد فالله يرعاكم وخوضوا الصفوف إلى المعمعة
إلى ساحة المجد موتوا بها كراما فلا خير فى إمّعة

...

أغانيكم من صليل السيوف وألحانكم من قضيض الرماح
إذا جبن الناس خوف الحتوف مشينا لها بنفوس سماح

...

ألسنا الألى دوخوا العالمين وقادوا الجيوش وسادوا الأمم
وخطوا على صفات الخلود « يعيش المليك ويحيا العلم »

مصطفى يتحدث إلى سعيد: أما سمعت النشيدا أما رأيت الجنودا ؟

هاهم أولاء إلى الحرب يحملون البنودا
وعنهم فاستجابوا وقابلوها أسودا
حيا الإله الجنودا حيا الإله الجنودا

سعيد : أإلى الموت؟
مصطفى: بل إلى المجد ساروا يرفعون البنود والأعلاما
سعيد : كتب الله للجنود حياة
مصطفى: أو مماتا . إذن يموتوا كراما

وهما يفترقان

سعيد : عم مساء
مصطفى: إلى اللقاء
سعيد : غدا فى ضَحْوة الشمس أو قريب الزوال
مصطفى: وهنا حيث مر بنا الجيش إلى ساحة الوغى والنزال

الفصل الثانى

سعيد : يروح ويغدو فى مكان الانتظار يحدث نفسه فيقول :

ويح نفسى ماذا أفدت بلادى إن رضيت القعود والإحجاما
أمن النيل أرتوى فإذا ما قيل ذُدْ عن حماه قلت علام؟
وعلى أرض مصر أحيا فإما طالبتنى الوفاء خنت الذماما؟
فليكن خيرها لغيرى فإنى لست إلا مستعبدا مستضاما

يتقابلان :

مصطفى : سلام عليك

سعيد : ســلام على صديق المفدى زميل الصبا

مصطفى : علام الذهول؟ وىم الشرود ؟ وفيم البكاء؟ وقت الردى

سعيد : سأفضى إليك بمـا اننا بنى وأسهرنى الليل حتى انقضى

ذكرت بلادى وما نالها وما حملت من صنوف الأذى

وهذا العدو الذى أحدقت كتائبه خلسة فى الدجى

أليس من العار أن أنزوى وهذا الأوان أوان الفدا

ولم أتمرس بهـول الجهاد ولم أتعود حياة الوغى ؟

فهل من سبيل إلى خطة تصون البلاد وتردى العدا ؟

ولو أن مصر تنادى الفداء للبيت وحدى هـذا الندا ؟

الفصل الثالث

باحة واسعة فيها « ضابط » « أمير جيش » فى ناحية وجنود متفرقون ، يختلى الأمير والضابط فيتحدثان .

الأمير : أيها الضابط

الضابط: نبيك أميرى !

الأمير : هات ماعندك !

الضابط: أبنيك أمينا؟

الضابط: لم ندع نجدا من الأرض ولا وهدة إلا ملأناها كمينا

ونظمنا الجيش فى ساحاتها وبثينا فى نواحيه العيونا

وحشدنا من معدات الوغى قاذفات وقلاعا وسفينا

ثم ناجزنا الأعادى ساعة　　فانثنوا عنا وفروا هاربينا
فمنعنا الجيش عن غشيانهم　　وعلمنا أنهم يأتمرونا
فإذا بان لنا مابيّتوا　　وكشفناه فنحن الظافرونا
ليست الحرب حصونا وقوى　　بل إلى ذين خداعا وفنونا

الأمير يخطب فى الجند

أيها الجند دونكم منزل الأعداء　　قصُّوه واحملوا الأخبارا
أيها الجند أيكم يبذل الروح　　فداء ويكشف الآثارا
هاكم المجد والفخار فمن ذا　　يبتغى المجد أو يروم الفخارا ؟

الفصل الرابع

يظهر مصطفى وسعيد فى لباس جنديين انضما إلى الجيش.

سعيد : وداعا أخى حان وقت الفداء　　وهأنذا البطل المرتجى
سأمضى إلى طيّتى باسلا　　وأسلك وحدى طريق الردى
وأكشف خطة هـذا العدو　　وأحبط من كيده ما أتى

مصطفى : ألى الموت ؟

سعيد : بل إلى المجـد أمضى　　بطلا صاحبى قناعى وسيفى !
أخبر القوم قصتى فإذا ما　　أقبل الليـل فاتبعونى بزحف
حيث أرمى العدو بالحيلة البكر　　وألقى بين الكتائب حتفى

ويمضى مسرعا وتنزل الستارة .

الفصل الاخير

أمير الجيش يحي نعش البطل ملفوفا بالعلم ، فإذا أنزلته الجنود ليدفن حيته فرقته بهذا النشيد (منظر عسكرى)

مجِّدوا هـذا الشهيدا اذكروه فى علاه
وانظموا فيــه نشيدا تتغنــاه الشــفاه

...

كانت الأوطان نهبــا فحماهـــا
ودعت مصر فلبي وافتـــداها

...

مجـدوهْ ، اذكروهْ قدسوا هـذا الدما
خلدوهْ ، اجعلوهْ للضحايا علمـا

...

حنطوه بالدم الحر الطهورْ .
وضعوه فى الحنايا وادفنوه فى الصدورْ .
واخفضوا الرأس لذكراه على مر الدهورْ
خلدوه فى الأغانى
واذكروا فيه الأمانى
إنما الذكرى وفاء .
أيها البطلْ — أيها البطلْ
نم قرير العين فى دار الخلودْ

عبد العزيز محمد خليل

مصر الجديدة للبنات

فهرست

العدد الرابع من السنة السادسة